أمين الســـاطي

شوارع الغضب

روايـــــة

الإهـداء

عندما يتقدم الرجل بالعمر، تصبح عائلته هي مركز حياته، ويزداد تعلقاً بأبنائه وأحفاده، ويستمر بالاستمتاع بالحياة من خلالهم.

إلى ولديّ منير وعمر وأحفادي الأربعة خاصةً، وجميع الأشخاص الذين شجعوني على كتابة الرواية، ثم ساعدوني في مختلف مراحل العمل.

أتقدم بخالص محبتي وشكري لكم جميعاً.

شوارع الغضب

المؤلف: أمين الساطي

التدقيق اللغوي: عماد كاتبة

الإخراج: م. عمّـار أبو لبّـادة

توتول للطباعة والنشر والتوزيع

سورية – دمشق – الحلبوني – شارع المكتبات

+963 11 2256191

+963 933 247820

totolsy2020@yahoo.com

totolsy2020@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة 2021

لا يسـمح بطباعـة هـذا الكتـاب أو نسـخه
إلا بإذن خاص أو مسبق من المؤلف

المقدمة

ليس هناك خطٌ فاصلٌ بين الأشكال الحية والجماد، ومن ثمَ لا يوجد خطٌ فاصل بين ما هو حيّ، وما هو ميت. لقد أثبتت الفيزياء الحديثة من خلال تجربة الشق المزدوج للعالم يونغ، أن الإلكترون يستطيع أن يغيّر سلوكه في أثناء سير التجربة، فيما لو شعر بأنه تحت المراقبة، نتيجة لخيارات غريزية بدائية للغاية في تكوينه، قرارات يتخذها كل إلكترون في كل لحظة حول مكانه وكيفية ظهوره، فنستنتج أن الإلكترونات قد تمتلك نوعاً من العقل البدائي، وهي واعية لما يجري حولها، وهذا يفرض بوجود شكل من أشكال العقل، داخل المادة التي نشاهدها أمامنا، وعلى الرغم من أن المادة الجامدة لا تتطور مع مرور الزمن، مثل المادة الحية، لكنها قادرة على أن تقوم بأمور معينة، وتصرفات محدود كردة فعل عن القوى الخارجية التي تحاول التأثير فيها، ما يدفعنا لنتصور أنّ الخط الفاصل بين الواقع والخيال ضبابيّ، ويمكننا بسهولة تجاوزه.

نبذة عن المؤلف

حين تقرأ لأمين الساطي، فأنت تحجز لنفسك مقعداً في مركب تعرف أنه سيأخذك إلى المجهول، لكنه سيعيدك سالماً إلى حيث انطلقت، وفي هذه الرحلة المجهولة الوجهة، سترى الكثير من مشاهد بعضها متوقع، فقد هُيِّئت لها الأنواء الجوية المصاحبة، وبعضها غير متوقع، يقصفك بحجارة من سجيل، وبين هذا وذاك تحسّ أنك في مغامرة حقيقية، تتعرف، وتستكشف، وتسمع، وترى، وتعيش أحداثاً، بعضها يذهلك، وأخرى تذهلها أنت بوجودك بينها، ولكنك لا تزال قادراً أن تخرج منها سالماً، تعاود استكشاف الآتي، ومركب قبطانه أمين الساطي، عليك سلفاً أن تتوقع أنه سيقدم لك بين وقت وآخر وجبات دسمة من مخزون علمي هائل، يحضّره لك كلما أحسّ أنك قادر على أن تهضمه، وأما المقبلات التي تفتح شهيتك على الإقبال عليها فلا تخلو من إيحاءات ونزوات وشهوات يطعّمها بالمشهيات والتوابل، وحتى أقراص الفياغرا.

أمين الساطي يكتب للقارئ من دون أن يلتفت إلى أن ما يكتبه هو قصة قصيرة أو قصة طويلة، مجموعة قصص أو رواية، يترك لك بعد أن تقرأ أن تقرر، هو يهمه أولاً أن يغزو عقلك، فإذا ما نجح، وهو ينجح دائماً، فليكن ما تقرأ حتى مجرد أفكار وأحداث وهواجس، المهم أن يمتّعك بنتاج خيال خصب وثقافة عالية وتمكّن لغوي وتوهّج اصطفائي وتجاذب نخبوي، يضع فيه تجارب وخبرات حياة، منذ كان طالباً في

ثانوية التجهيز الثانية، أسعد عبد الله في الحلبوني، المجاورة لمنزله، ثم التجهيز الأولى في زقاق الصخر المطلة على شارع شكري القوتلي، أول الطريق إلى بيروت.

ولد في دمشق لأب طبيب دمشقي شهير، وكان دائماً الفتى الحالم السابح في بحور من خيال لا شطآن لها، شرهاً لقراءة الكتب، قصص، روايات، علم نفس، علوم، كان مولينكس كتب، ولم يكن ذلك على حساب دراسته، فقد حصل على الثانوية العامة الفرع العلمي، وسافر إلى الولايات المتحدة ليدرس الهندسة المدنية في جامعة أوكلاهوما، ويعمل فترة من الزمن، ليعود بعدها إلى دمشق فترة قصيرة مهندساً في وزارة الأشغال العامة، ثم يسافر بعدها إلى السعودية، بينها إقامة مؤقتة في المغرب، وبقي في السعودية حتى التقاعد مهندساً استشارياً في شركة الرشيد الهندسية، ويستقر أخيراً في دبي للكتابة، ليُصدر منها أول كتبه أوهام حقيقية، وثانيها نبوءة على التلفاز، وبعدها الممسوسة، وها هي روايته الجديدة شوارع الغضب، وقد أمضى أكثر من عام في كتابتها.

ويمكن أن نتابع أكثر.... وهذه مجرد مسودة كتبتها الآن على عجل.

الكاتب الإعلامي منير جبان

الفصل الأول

مازلت ممدداً على سرير العمليات في المستشفى، وأنا أسمع صوت الطبيب الجراح في أذني، يقول لمساعده: «سنجري فتحة الشقّ على جانب فخذه الأيسر، بطول عشرة سنتمترات».

أصبح كل خوفي أن يباشر الجرَّاح العملية، وأنا واعٍ لما يجري من حولي، لكنني لم أتمكن من الحراك لأنبهه بأنني مازلت صاحياً، وأن إبرة المخدر التي حقنها طبيب التخدير في داخل أسفل عمودي الفقري قبل ربع ساعة، لم تعطِ مفعولها حتى الآن، لقد عمد الطبيب لتخديري بهذه الطريقة، لكي يقتصر تأثير المخدر، فقط على القسم الأسفل من جسدي، لتحاشي الأعراض الجانبية التي تحدث في حالات التخدير العام، والتي أنا في غنى عنها، نظراً لتقدمي بالسن، ثم ازدادت مخاوفي، وأنا

أستسلم للنوم، وبدأت أتصوّر، ماذا سيحدث إذا صحوت من التخدير فجأة، بينما كان الجراح مشغولاً بثقب عظمة فخذي المكسورة لتركيب البراغي عليها، لتثبيت القطعة المعدنية المتصلة بعظمة وركي.

لا يمكنني وصف حالة الهلع، التي كنت أمرُّ بها في تلك اللحظات، بعد دقائق لم أفقد وعيي بالكامل، ولكني فقدت الإحساس بالزمن والحركة، وشعرت بسعادة وأنا أحسُّ بروحي تخرج من جسدي، آخذةً بالصعود إلى الأعلى، لأعاين بعدها الجرَّاح، وهو يقوم بالعملية من أعلى زاويةٍ بالغرفة.

لقد ذهب كل خوفي، واختفت الضوضاء في غرفة العمليات، ودخلتُ في سكون عميق، وشعرتُ بارتياح غريب، وبدأ الضوء الساطع الأبيض في الغرفة في التحول إلى سواد كامل، ووجدت نفسي أطير بداخل نفقٍ معتمٍ طويلٍ، نحو هذا الضوء، الذي يزداد إشراقاً، كلما اقتربت منه، حتى وصلت بنهايته إلى ضوءٍ أبيضَ لامعٍ، فشاهدت حينها المرحومة زوجتي، حاولت الاقتراب منها، لكنها لوَّحت بيدها واختفت، والتفتُّ إلى يميني فشاهدت خالتي بدرية، سألتها عن أمي فقالت لي إنها بخير، وطلبت منها أن أذهب معها لرؤيتها، لأنني مشتاق إليها، ولا أريد العودة إلى جسمي في غرفة العمليات، لكنني سمعت صوت خالتي بلهجتها القاسية، والتي لا يمكن أن أخطئها، وهي تطلب مني العودة فوراً،

لكيلا أترك ابنتي الوحيدة وحدها في هذه الظروف القاسية، التي ستمرُّ على لبنان في الأيام القادمة، فهززت رأسي رافضاً.

أخرجت نفساً عميقاً من صدري، وشاهدت دخان سيجارة الحشيش الأبيض، يتلوى بصمت راسماً فقاعات من الهواء، بشكل متناسق وجميل، قبل أن يتلاشى في طريقه نحو سقف الغرفة.

إن الملل من جلوسي بالبيت لفترات طويلة وحيداً في فراشي بعد إجراء عمليتي الجراحية يدفعني رغماً عني لتخدير نفسي، بمشاهدة المسلسلات التلفزيونية ومباريات كرة القدم، وقتل ما تبقى من الوقت على مواقع التواصل الاجتماعي، محلقاً في عالم يمتزج فيه الواقع بالخيال، يسمح لي دائماً بتقمّص الشخصية التي كنت أحلم دائماً أن أكونها.

إن المستويات العالية من هرمون التوتر الذي أعانيه، أدى إلى توقف العمل في بعض العمليات الذهنية في مخي، ما جعلني أجد بعض الصعوبات في التمييز بين الخيال والحقيقة، وعندما ينخفض مستوى التوتر لديّ، أستعيد قدرتي على التمييز بين الاثنين.

خلال ذهابي إلى المستشفى من أجل جلسات العلاج الفيزيائي، كنت أشاهد المظاهرات الحاشدة، تعمّ بيروت، وكان معظمها من

الشباب والبنات الذين أصبح الأمل الوحيد لديهم هو إسقاط الحكومة، أو مغادرة هذا البلد، الذي يغرق في بحر من الأزمات الطائفية والاقتصادية التي لا تنتهي.

في هذه الأثناء.. كنت قليلاً ما أفكر بالمشكلة الاقتصادية التي قد تنتظرني، فراتبي التقاعدي الذي أقبضه في آخر الشهر، وهو بحدود أربعمئة وخمسين دولاراً، وهو يكاد يكفيني لإعالة نفسي، حيث إنني أعيش في بيت صغير، يتألف من غرفتي نوم وصالة، كنت قد ورثته عن المرحومة أمي.

كانت زوجتي قد توفيت منذ أكثر من خمس سنوات، وتركت لي ابنةً وحيدةً، تعيش حالياً مع زوجها الذي يعمل مدرساً في بلدة «دوما» في محافظة بعلبك، والتي تبعد عن بيروت حوالي سبعين كيلومتراً، لقد اعتدت أن أتردد على زيارتهم في عطلة نهاية الأسبوع، وفي المناسبات والأعياد، على الرغم مما يقال: إن البنت حبيبة أبيها، وذلك لطبيعة الروابط العاطفية الفطرية المتميزة بين الطرفين، فإن علاقتي مع ابنتي ريم لم تكن قوية، ربما لأنني كنت قد وكلت زوجتي بالاهتمام بتربيتها، واقتصر دوري على تأمين الجوانب المادية والحماية لهما، ولم أكن أستوعب في ذلك الوقت المقولة بأن علاقة البنت بأبيها تحكم في المستقبل علاقتها بالجنس الآخر.

إن كل رصيدي في بنك البحر الأبيض المتوسط لا يزيد على سبعة آلاف وخمسمئة دولار، على الرغم من بساطة هذا المبلغ، إلا أنه كان يخطر على بالي أحياناً بأنه سيساعدني على الزواج مرة ثانية، لأبدأ حياتي من جديد، لكنني الآن أصبحت أتصور نفسي، بأنني صرت واحداً من الأشخاص المستهدفين من الحكومة الخفية التي تحكم العالم، والتي تتحكم في البنوك والمؤسسات المالية والصناعية، مستهدفةً السيطرة على الكتلة البشرية الموجودة على وجه الكرة الأرضية، وذلك إما بتجويعها، وإما بنشر الأوبئة والأمراض فيها، فيصبح موقف الجنس البشري ضعيفاً، فيتنازل عن حريته وحقوقه مقابل الغذاء والدواء، ويستسلم لهذه الطبقة الجديدة المختارة من العلماء ورجال الأعمال، إنَّ الأغنياء تزداد ثروتهم مع الوقت، بفضل علاقاتهم الاجتماعية المفيدة المتشابكة مع بعضهم بعضاً، ما يتيح لهم الفرص للاستفادة من النمو والتطور السريع الذي يشهده العالم، بينما لا تتوافر لي هذه الإمكانيات.

أشعلت سيجارة الحشيش وبدأت في تدخينها، ونفثت الدخان ببطء، ليتلاشى في صمت لا يقطعه سوى شريط ذكريات ذلك اليوم، منذ حوالي أربعين سنة، عندما خُطِبَت ابنة عمتي ناديا إلى رجل غني يكبرها بأكثر من عشرين عاماً، في البداية حاولت أن أقنع نفسي بأنه من المستحيل أن توافق على الزواج برجل بعمر

أبيها، لكن الأيام أظهرت لي، أن المرأة تبحث بالدرجة الأولى عن الأمان، ومادام كان باستطاعة أهلها إقناعها، بأن المال هو أفضل وسيلة للأمان، غاسلين بهذه الكلمات دماغها، فإنها ستتحول من كائن حساس ناعم، إلى امرأة استهلاكية شرسة، وتصبح جاهزة للزواج من أي رجل غني قادرٍ على الصرف بسخاء عليها.

ما زلت أدرك بأنه خلال كل الجلسات العائلية، التي جمعتني بناديا وزوجها، كانت تنتابني كراهية شديدة نحوه، وأنظر إليه كلصٍّ حقيرٍ، سرق زوجتي مني، مستغلاً أحوالي المادية المتواضعة، وفي الوقت نفسه أبرر تصرفاتها بأنها تزوجته نتيجةً للضغوط العائلية التي فرضت عليها.

مددت يدي اليمنى وقرصت وجهي، لأتأكد بأنني مازلت موجوداً، وأنني لا أعيش حلماً لطيفاً، سينتهي بمجرد أن أستيقظ، لكنني لم أستطع تحريك يدي.

بعد وفاة زوجتي بأسابيع قليلة، بدأت تسيطر عليَّ فكرة العودة إلى الماضي، لأبدأ حياتي من جديد، على أن تكون ناديا جزءاً منها، إنه الحنين إلى أنفسنا وملامحنا وأحلامنا التي لم تتحقق، وليس من الضرورة أن يكون تذكر هذه الأشياء بالشكل كما كان عليه تماماً بالماضي، لكنه الحنين إلى أيام المراهقة، وإلى علاقتي القوية بأمي، وإلى الأحلام التي شكلتها رغباتي الدفينة بناديا.

كل هذه الأمور أججت في نفسي هذه الرغبات المكبوتة، لكن المشكلة التي تواجهني الآن، أن زوجها العجوز المريض مازال موجوداً، إن عمره الآن يزيد على الثمانين عاماً، على الرغم من أنه يعاني مشاكل صحية عديدة، نتيجةً للجلطة الدماغية التي أصيب بها منذ سنتين، لكنه بالنسبة لسجلات قيد النفوس. فهو مازال حياً يرزق.

ازدادت حدة التوترات في لبنان، أخذت المظاهرات تتسم بالعنف، احتجاجاً على تردي الأوضاع المعيشية، لقد فقد اللبنانيون الأمل بالسياسيين لحل مشاكل البلد، واتجهت المظاهرات إلى استخدام القوة، لمحاولة إسقاط هذه الطبقة الحاكمة، التي ترفض التنازل عن مكتسباتها.

نزلت الدرج من شقتي في حي المصيطبة، متحاملاً على نفسي متجهاً إلى دوار رياض الصلح في وسط بيروت، إنها ساحة للاعتصام، يجتمع فيها الناس على جميع أشكالهم، وينظمون أنفسهم للانطلاق في المظاهرات.

وصلت بعد حوالي ساعة إلى المكان، وكانت ساقي تؤلمني من المشي لهذه المسافة الطويلة، فجلست على الرصيف بجانب إحدى الخيام المنصوبة، الساحة ممتلئة بأنواع مختلفة من الأشخاص، وكل ما يجمع هذا الخليط، هو الحقد الموجه نحو هذه الطبقة

الغنية المتسلطة على لبنان.

على يميني هناك تمثال لرئيس حكومة الاستقلال رياض الصلح، وعلى يساري صورة كبيرة لرفيق الحريري، قام بعض أفراد تيار المستقبل بتثبيتها على لوحة معدنية سوداء، غير آبهين باعتقاد الكثير من الأفراد المحتجين الموجودين بالساحة، على أنه المسؤول الأول عن الفساد، وهو الذي أوصل البلد إلى حافة الإفلاس، مستغلين حالة الفوضى التي تضرب هذا المكان، كما تناثرت صور بعض قادة المعارضة المحليين على جدران الأبنية القديمة التي تحيط بالساحة.

بدأ المحتجون بالتحرك باتجاه مجلس النواب، وكان بين المتظاهرين بعض البنات اللواتي لوّنَّ وجوههنَّ باللون الأبيض، وارتدين الملابس السوداء، رمزاً لشعب تصرُّ الطبقة السياسية على دفنه حياً، لفت نظري بينهنَّ بنت طويلة ممتلئة الجسم، قد تكون في الأربعينيات من عمرها، تقوم بتنظيم صفوف البنات في أثناء سيرهنَّ بالمظاهرة.

تقدم رجال الجيش نحونا محاولين تفريق المتظاهرين، فرددنا عليهم بإلقاء الحجارة، فما كان من الجنود إلا أن فتحوا علينا النار، مستخدمين الذخيرة الحية، ما أدى إلى إصابة شخصين منا، قابلنا إطلاق النار، بإلقاء قنابل المولوتوف المشتعلة على رجال

الجيش، ما دفعهم إلى التراجع قليلاً إلى الوراء، ثم أطلقت القوات الأمنية المتمركزة خلفهم قنابل دخانية لتفريقنا، فردَّ المجتمعون باستخدام الإطارات المشتعلة التي كانت مجهزة لديهم سابقاً، وأضرموا النار في صناديق القمامة الموجودة على جوانب الطريق.

في هذه الأثناء حاولتُ أن أستفيد من هذه الفوضى، فأخرجت من جيب معطفي عبوة دهان صغيرة مضغوطة، كنت قد جلبتها معي، واتجهت إلى إحدى الواجهات الزجاجية المطلة على الساحة، رججت العبوة، وضغطت على الزر الموجود في رأسها، فخرج منها رذاذ بخاخ أسود، ترك على الزجاج جملة «تسقط دولة المؤسسات» ثم عدتُ أدراجي، واندسستُ بين المتظاهرين.

تحول المشهد إلى مواجهات دامية مع الشرطة والجيش، ما دفع قوات الجيش إلى استدعاء تعزيزات من القوات الاحتياطية، لمحاولة السيطرة على الوضع، وعاد الجيش من جديد، للتقدم باتجاه ساحة رياض الصلح، مستخدماً بكثافة قنابل الغاز المسيّل للدموع، وفتح علينا خراطيم المياه من سيارات الإطفاء التي أحضرها لهذا الهجوم المعاكس، ما تسبب في حالة من الذعر بيننا.

حاول آلاف المتظاهرين الركض والفرار عبر إحدى الطرق الفرعية، لقد قرر الجيش إخلاء المنطقة، ولو أدى الأمر إلى استخدام القوة المفرطة، أما بالنسبة لي، وبسبب وضع ساقي،

فقد أصبح من المستحيل أن أركض مع هذه الحشود المذعورة، لكن ما راعني فعلاً، هو قيام أحد عناصر الأمن بشتمي بصوتٍ عالٍ، وألحقها بكلمات بذيئة عن أمي، فرفعت يدي بحركة لا شعورية وجذبته من ياقته بكل قوتي إلى الأعلى وباتجاهي، فما كان منه بعد أن استعاد توازنه، إلا أن صفعني على وجهي، وهنا تدخل بيننا ملازم ثانٍ من الشرطة، كان قريباً منا، وأبعدنا عن بعضنا بعضاً، ثم قادوني إلى مخفر الشرطة، لحسن حظي جاء الملازم نفسه للتحقيق معي، وطرح عليَّ عدة أسئلة عشوائية، تدور حول اتجاهاتي السياسية، وفيما إذا كنت عضواً عاملاً في أحد الأحزاب اليسارية.

فجأة سألني: «لماذا كتبت فلتسقط دولة المؤسسات»؟

أدركت حينها بأنني كنت مراقباً، وأن هناك كاميرات تسجل كل ما يحدث أثناء المظاهرات، ولم يعد بإمكاني الاستمرار في الإنكار، فأجبته: «لأنها المسؤولة عن سوء الإدارة، ما أدى إلى انهيار البلد»، فهزَّ رأسه متظاهراً بأنه يصدقني، ثمَّ نقلوني إلى غرفة توقيف ثانية صغيرة، انحشرت فيها مع أكثر من عشرين شخصاً، أدركت في هذه اللحظة أنني كسرت حاجز الخوف الذي كان شبحاً يطاردني أينما وجدني، إلى جانبي كان يقف رجلٌ مرعوبٌ في الستينيات من عمره، وهو ينزف من أنفه، وعلى وجهه آثار لكمة قوية، فعرَّفني على حاله بأن اسمه أبو أيمن، فأشفقت

عليه وطمأنته، بأنه لا يمكنهم احتجازنا لفترة طويلة، فإن جمعية هيومن رايتس ترصد حركات الشرطة بدقة، وتنقلها إلى وسائل الإعلام الأجنبية، وإلى تلفزيونات العالم الغربي المتعاطف معنا.

خلال توقيفنا كنّا نسمع أصوات تعذيب مستمرة صادرة من آلات التسجيل الموجودة في غرفة مجاورة، هدفها كسر إرادتنا، لكي يتمكنوا من السيطرة علينا، ثم طلبوا مني التوقيع على محضر لإخلاء السبيل، تعهدت فيه على أنني لن أعود للمشاركة في المظاهرات مرة ثانية، بعد أن غادرنا مخفر الشرطة، تواعدت مع أبو أيمن، على أن نلتقي غداً صباحاً من جديد في ساحة رياض الصلح، أصبحت الآن مصمماً أكثر مما مضى، على استخدام أقصى درجات العنف، مع هذه العصابة وأتباعها.

اجتمعت من جديد مع أبو أيمن، وفهمت منه بأنه عامل بناء باليومية، ونتيجة لهذا الانهيار الاقتصادي، فقد أصبح متعطلاً عن العمل، جلسنا على الرصيف ندردش عن أحوالنا وأخبار البلد، كانت الشمس مشرقةً، والجو معتدلاً، ما أعطانا الشعور بالاسترخاء، وفهمت منه أنه يقوم حالياً ببيع حبوب الكبتاجون ليغطي بها مصاريف عائلته اليومية.

إن الأجواء السياسية هادئة نسبياً لهذا اليوم، في أثناء ذلك واصل اللبنانيون توافدهم إلى ساحة رياض الصلح، وفجأة اعتلت

راقصة لبنانية إحدى السيارات، وقدمت وصلة من الرقص الشرقي، فتجمهر حولها عدد من الشباب، وأخذوا يصفقون لها، ما دفع بعض السيدات المتظاهرات وبعض الرجال إلى طردها من الساحة، مدركين أن دسَّها بين المتظاهرين، هو محاولة من الحكومة لتحويل المظاهرة إلى كرنفال، للتشكيك بجدية المشاركين في هذه المظاهرات، ما يثبت بلا أدنى شك، بأن هذه الخطة الذكية، هي أكبر من قدرات هذه الحكومة الغبية التي لا تفكر إلا بمصالحها الآنية، وعندما أشعلت بالمساء سيجارة الحشيش بدأت أسأل نفسي فيما إذا كان منظر الراقصة الذي شاهدته اليوم في الساحة حقيقياً، أم إنه مجرد خيالات أصنعها بعقلي اللاواعي؟

أخرج أبو أيمن من جيبه حبة الكبتاجون، وضحك قائلاً: «جرِّب هذه الحبة، إنها هدية مني لك»، فأجبته: «إنني لا أتعاطى حبوب الهلوسة»، فاندفع مثل أي بائع متجول يقوم بالدعاية لبضاعته، وأخذ يمدح لي فوائد هذه الحبة، بأنها دواء ضد التعب النفسي، فهي تحسن النفسية، وتخفف من الاكتئاب.... وتجدد النشاط، ما تساعد الشخص للسهر طوال الليل، وذكرت له بأنني أستمتع بلف سيجارة الحشيش وتدخينها، وأنا جالسٌ وحدي بالمساء في بيتي، أشاهد المسلسلات التلفزيونية.

بنهاية الحديث نصحني أبو أيمن بأن ألبس نظارة شمسية،

وأن أضع على رأسي شعراً مستعاراً يغطي أذني، لأنه من السهل التعرف على الشخص بالصورة من أذنيه، فهو يتوقع أن الأمور ستكون حامية في الأيام القادمة، ثم ودعته وتركته في الساحة، وعدت أدراجي إلى بيتي.

انتظرت بلهفة قدوم الصباح، لأنطلق إلى الساحة، ولقد وضعت على رأسي طاقية الصوف الرمادية، ووضعت نظارة شمسية على وجهي لحمايته من أشعة الشمس ومن رجال الأمن، بعد وصولي شاهدت أبو أيمن يتمشى بين المجتمعين، وقد وضع على رأسه وشاحاً من القماش الأبيض المخطط بالأسود، وقد طوى قطعة القماش بشكل مثلث على رأسه، فظهرت مثل الكوفية الفلسطينية، التي اكتسبت شعبية كبيرة بين الناشطين في هذه الساحة، والذين يدعمون القضية الفلسطينية، وارتدى نظارات شمسية سوداء.

عادت الاحتجاجات من جديد، على خلفية مواصلة انهيار الليرة اللبنانية أمام الدولار، قام المحتجون بمهاجمة مجلس النواب، وتمكن بعضهم من كسر أحد الأبواب الخارجية، ما دفع شرطة مجلس النواب إلى مهاجمة المتظاهرين بشراسة، مستخدمين أقسى درجات العنف، برميهم بالقنابل المسيلة للدموع، وإطلاق الرصاص الحي مباشرة عليهم، فأصيب العشرات منهم بإصابات خطيرة، وقُتِل عددٌ منهم، وتحولت الشوارع المحيطة بالمجلس إلى

ساحة معركة حربية، واستدعوا دفعات جديدة لمساندة الشرطة، التي بدأت تلقي القبض على المتظاهرين بالشوارع المحيطة بالمجلس، وتضعهم في شاحنات عسكرية، ومن ثمَّ ترسلهم إلى السجن المركزي.

في أثناء الفوضى، شاهدت أحد رجال الشرطة، وقد أمسك بالبنت الطويلة التي أعجبتني، صاحبة الوجه المطلي بالدهان الأبيض، قبض على يدها، وأخذ يشدُّها بعنف، وهي تقاومه نحو الشاحنة المتوقفة على جانب الطريق، بينما كان يحمل في يده الأخرى درع مكافحة الشغب، وشعرت بقوة جارفة تدفعني لإثبات ذاتي أمام هذه الفتاة، فتقدمت نحو الشرطي، وجذبته من الدرع البلاستيكي الذي يحمله بيده اليمنى نحوي، فاختل توازنه، وترك يد البنت، والتفت نحوي، ليصفعني بالصفيحة البلاستيكية الثقيلة على صدري، ولا أدري من أين أتتني الشجاعة، لأمسكها من طرفيها المتقابلين، وألفّها بأقسى عزمي إلى اليمين، فلم يعد باستطاعته أن يظل ممسكاً بقبضتها، فتركها بين يدي، فأخذتها منه، وضربته بها على رأسه، ثم ألقيتها على الأرض، وركضت بعيداً عنه، لأختفي بين المحتجين المشتبكين بالأيادي مع الشرطة.

وعلى الأرض، كنت أشاهد عشرات الأشخاص الجرحى، ينزفون من دون أي عناية طبية، ولم أصدق نفسي، إلا حتى وصلت إلى الساحة، لأنه لو تمَّ إلقاء القبض عليَّ، وأنا أهاجم

الشرطي، لتم إيداعي السجن لعدة أسابيع، قبل أن تتم إحالتي إلى المحكمة العسكرية.

بقيت بعد هذه الحادثة يومين لا أغادر بيتي، منتظراً حتى تهدأ الأمور، كنت طوال الوقت أجلس شارداً، وأنا أتساءل بيني وبين نفسي فيما إذا كانت معركتي مع هذا الشرطي حقيقية، أم إنها مجرد هلوسات انتابتني لإشباع رغبتي في الحصول على إعجاب تلك المرأة الطويلة الغامضة، أحياناً من الصعب تمييز الهلوسة عن الواقع، فقد تخلق الرؤيا أثناء النوم صوراً مرئية واضحة ثلاثية الأبعاد.

سرحت بخيالي، وأنا ممددٌ على الفراش، وفكرت بأنه لو جمعنا أرقام عامنا الحالي، ألفين وعشرين، فسيكون حاصل الجمع أربعة، وبحسب ما قرأت، فإن الصينيين يكرهون استخدام الرقم أربعة، لأنهم يعتبرونه مثيراً للتشاؤم، لذلك فهم لا يستخدمون رقم أربعة في المصاعد، وفي ترقيم الأبنية، لأن النطق بالرقم أربعة باللغة الصينية يلفظ بشكل سيئ، وهو يماثل لفظ كلمة الموت، وتعززت هذه الفكرة في رأسي بعد هذه العملية الجراحية التي جرت معي منذ أيام.

في تلك اللحظة.. خطرت لي طبيعة العلاقة التي تربطني بالرقم أربعة، فأنا ولدت في خمسة آذار، وهذا يعني بلغة

الأرقام أنني ولدت في اليوم الخامس من الشهر الثالث، والرقم أربعة يتوسط هذين الرقمين، ولعله هو المسؤول عن سقوطي على الأرض بهذا الشكل المروع، إن الأرقام والأعداد ليست مجرد أشكال هندسية، إنما هي مخلوقات لها مفاهيمها ومعانيها المدهشة، ولها انعكاساتها على حياتنا، وعلى مجرى الأحداث التي نعيشها، الأرقام يكمن سرُّها فيها، فهي اللغة الوحيدة المشتركة لجميع سكان الأرض، وإن الأرقام الأساسية من صفر إلى تسعة، ربما تكون هي الشيفرة المخفية لتركيب هذا الكون.

الفصل الثاني

لم يمضِ أكثرُ من ساعة على تناولي لهذه الحبة، حتى شعرت بتأثيرها، فازدادت نبضات قلبي لدرجة كبيرة، بحيث بدأت أتصور بأنني أسمعها في أذني، وأصبحت كثير النشاط، ولم تعد لدي رغبة في الجلوس على الكنبة لمشاهدة التلفزيون، لم أكن أتخيّل أن بإمكان هذه الحبة السحرية أن تعطيني هذه الأحاسيس الرائعة التي أخبرني عنها أبو أيمن.

شعرت بعاطفة قوية نحو ناديا، وأشفقت عليها من أن تستمر بالبقاء مع زوجها المريض، وأدركت لأول مرة بوضوح، بأنه آن الأوان لكي أضع خطة عملية للتخلص من هذا اللص الحقير، انتابني نوع من الوعي للأشياء المحيطة بي، لقد أدركت بأنني قد تحررت نهائياً من وهم الخوف الذي كان يسيطر عليَّ طوال

حياتي ويدمّرها، ويمنعني من اتخاذ القرارات التي تتلاءم مع رغباتي الحقيقية.

رؤيا وأحاسيس وأفكار جديدة، بدأت أستمتع بها، لم يسبق لي أن مررت بها في يوم من الأيام، على الرغم من تدخيني لسجائر الحشيش منذ فترة طويلة، لكن شعوري في هذه المرة يختلف كلياً عن كل المشاعر التي عرفتها في الماضي، لقد أعطتني هذه الحبة الغريبة الأطوار مفهوماً جديداً للأمور التي تدور من حولي، وجعلتني أستوعب الأحداث بنظرة جديدة، وكشفت لي عن الغرائز المتضاربة التي تتصارع في داخلي، في حقيقة الأمر، لقد فضحت حبة الكبتاجون كل ما كنت أخفيه عن شخصيتي الحقيقية.

عجزت عن النوم بعمق في تلك الليلة، لقد اعتدت بعد تدخيني لسيجارة الحشيش التمدد على الكنبة والاسترخاء، ثم تخيُّل الأمور التي أرغب في مشاهدتها، لتنساب في رأسي كالصور في شريط سينمائي، محققةً إشباعاً لرغباتي المكبوتة، التي لا أستطيع تحقيقها على أرضية الواقع، لكنني الآن، ولأول مرة بدأت أشعر وكأني موجود داخل المشهد الذي خلقته أمامي، فأتوهم أن الأحداث التي أشاهدها تحدث بالفعل، وأعيشها بتفاصيلها الدقيقة، وأسمع صوت ناديا وهي تشجعني على قتل زوجها، وأشعر بعضلاتي وهي تتشنج في أثناء قيامي بذلك، لقد صور

لي مخي الحدث المرئي بوضوح بأبعاده المجسمة، لقد خضت التجربة من منظور حديث، لم أعهده من قبل.

لازمتني هذه المتعة حتى بزوغ الفجر، ثم بدأت أشعر بعدها، بأن مفعول الحبة بدأ يتلاشى مع مرور الوقت، وأنني أصبحت بحاجة إلى حبة ثانية، لأبعد عني شبح الإحباط الذي أخذ يتملكني من جديد، فقررت الذهاب مباشرة في الصباح الباكر إلى مقابلة أبو أيمن في ساحة رياض الصلح، لكي أشتري منه خمسين حبةَ كبتاجون، متصوراً بأن هذه الكمية من الحبوب تكفيني، حتى أتمكن من تنفيذ خطتي للتخلص من زوج ناديا، وبعد تنفيذ هذا الأمر، يجب عليَّ أن أتوقف فوراً عن تعاطي هذه الحبوب، حتى لا أصبح مدمناً عليها.

في الصباح التقيت مع أبو أيمن في ساحة رياض الصلح، وطلبت منه أن يعطيني خمسين حبةَ كبتاجون مقابل خمسين دولاراً، ومددت يدي إلى جيبي، لكي أخرج الخمسين دولاراً، هنا رفع أبو أيمن حاجبيه إلى الأعلى، ففهمت من هذه الحركة بأنه عليَّ أن أبقي النقود في جيبي، منبهاً: «إنَّ الساحة مراقبة بالكاميرات»... فأدركت حينها أن أبو أيمن ليس بالشخص البسيط الذي كنت أظنه، وأنني لست أنا الشخص الوحيد الذي يعرف أن الساحة مراقبة بالكاميرات، وأخبرني بأنه لا يحمل في جيبه الآن إلا سبع حبات، وسوف يبيعني إياها، فلو حدث أن الشرطة أوقفته،

فسيدافع عن نفسه، بأن هذه الحبوب للاستخدام الشخصي، فيتركونه يمضي في سبيله، من دون أخذه إلى مركز الشرطة للتحقيق معه بتهمة المتاجرة بالمخدرات.

انتابني نوع من الخوف من كلمات أبو أيمن، واستنتجت من حديثه، بأنه شخص له خبرة بالتعامل مع رجال الشرطة، ولم أكن أتصور أبداً بأن هذه المظاهرات ستأخذ هذا المجرى الخطير، لكن إشباعاً لرغبتي في التمرد على قوانين المجتمع، وحقدي على هذه الطبقة الغنية الحاكمة، دفعاني لمرافقة أبو أيمن في هذه المسيرات، اشتريت الحبات السبع، وعدت مسرعاً إلى بيتي، لأنني كنت أحس بحاجتي إلى تناول واحدة منها، لكي أستعيد نشاطي، وأطرد مشاعر الإحباط التي عادت للسيطرة عليّ.

انطلقت المظاهرات من أماكن مختلفة، لتكون نقطة التجمع النهائية لها في وسط بيروت، وتحديداً في ساحة رياض الصلح، وتوجَّهنا بعدها مع عشرات الآلاف من المتظاهرين إلى مبنى جمعية المصارف، للاحتجاج على القيود المشدَّدة على سحب الأموال النقدية من البنوك، سارت المظاهرة بشكل طبيعي في أول الأمر، وعندما اقتربنا من السوق التجاري، تحوَّلت المسيرة إلى عرض مسرحي من الشغب والفوضى، قام بعض المتظاهرين بتكسير واجهات المحال التجارية، فما كان من الشرطة إلَّا أن قامت برمي القنابل المسيلة للدموع.

خلال هذه الثورة، شاهدت أحد المتظاهرين وهو يقوم بتحطيم كاميرتين خارجيتين لدكانٍ مختصٍّ ببيع الملابس الرجالية الفاخرة، وبدأ المحتجون بالدخول إلى الدكان من خلال واجهته الزجاجية المحطمة، فلم أجد نفسي إلا وإلى جانبي أبو أيمن، مع تيار المشاغبين في داخل المتجر.

لاحظ أبو أيمن وجود كاميرا ثالثة في أقصى الزاوية للمحل، فقام بتكسيرها، حاول الشباب خلع الباب الحديدي الموجود في نهاية الدكان، ولكنهم فشلوا في ذلك، وهجمت مجموعة منهم على القسم المخصص للأحذية، وأنزلوا البضاعة من على الرفوف، فأسرع أبو أيمن باستبدال حذائه البالي بآخر جديد، وسرق حذاءين آخرين، ولم يبقَ من الأحذية بعد دقائق سوى علب الكرتون.

شاهدت معطفاً رجالياً أسودَ صوفياً أنيقاً معروضاً على حمالة معلقة في زاوية المتجر، فخلعته من على الحمالة ولبسته.. ووجدت إلى جانبه معطفاً رياضياً فاخراً من صوف الكشمير، ماركة رالف لورين الشهيرة، فلبسته فوق الجاكيت الأسود، المتظاهرون كالجراد، لم يتركوا أي بضاعة في المحل إلا ونهبوها، اشتدت حملات رجال الشرطة شراسةً، وبدؤوا يطلقون الرصاص الحي، للسيطرة على الرجال الساخطين، وهنا لجأ بعض الشباب إلى حرق المحال التجارية، لإلهاء أفراد الشرطة بإطفاء الحرائق،

بدأت القوى الأمنية بملاحقتنا بقساوة، حتى وصلنا إلى جسر الرينغ، هنا أخذت أنا وأبو أيمن طريقاً جانبياً ضيقاً، انسللنا مبتعدين فيه عن المتظاهرين، حتى وصلنا بعد أكثر من ساعتين إلى شقتي.

جهزت فنجانين من القهوة بعد غليهما جيداً ليزداد تركيزهما، ثم جلست مع أبو أيمن، نتناقش في تصريف البضاعة، وأخبرني بأن هناك صعوبة في هذه الأيام بتصريف الملابس الفاخرة، لأن الناس مفلسة، وليس معها من النقود ما يكفيها، لكنه يعرف بعض أصحاب المحال الصغيرة، الذين سيشترون منه هذه البضاعة، فأحضرت له من المطبخ كيس قمامة بلاستيكياً أسودَ، وضع فيه الحذاءين والمعطف الفاخر، وأكَّد لي أننا سنتقاسم المبلغ الذي سيحصل عليه مقابل بيع الحذاءين والمعطف، لم يتطرق في حديثه إلى المعطف الأسود الذي أرتديه، ولا عن الحذاء الذي في قدميه، وهمس في أذني وهو يغادر: «من الأفضل ألا نشترك في المظاهرات في اليومين القادمين، لأن الشرطة ستأخذ إجراءات قاسية بحق المتظاهرين، بسبب نهب وحرق المحال التجارية»، وتواعدنا على أن نلتقي في الساحة بعد ثلاثة أيام.

أشرقت الشمس بعد ثلاثة أيام على وسط بيروت، وجلست مع أبو أيمن على رصيف الدوار، فوجئت عندما أخبرني بأن حصتي من بيع البضاعة سبعون دولاراً فقط، لقد كنت أتوقع

أن أحصل على أكثر من مئةٍ وخمسين دولاراً مقابل هذا المعطف الرياضي الفاخر.

بعد قليل غاصت الساحة بالمحتجين، وزحفنا معهم باتجاه بنك المهجر، ولخلق حالة من الفوضى والعنف، أضرموا النار في الطابق الأرضي من مبنى البنك، ثم أقدموا على كسر الصراف الآلي الموجود عند مدخله، وأخذوا يتدافعون فيما بينهم لالتقاط الدولارات التي خرجت من داخل آلة الصراف، وتبعثرت على الأرض، فكرت في هذه اللحظة بأن أنضم إلى المخربين، لعلّي أتحصَّل على بعض الدولارات، لكن أبو أيمن سحبني من يدي وهو ينبهني، بأن هناك عشرات الكاميرات التي تصوّر ما يجري في البنك، وأن جميع الذين شاركوا في هذه العملية سيتم توقيفهم وتقديمهم للمحاكم، وزجّهم في السجون، لأن المؤسسات المالية الحاكمة، لا يمكن أن تتساهل مع الحركات التي تضرب أصولها على الأرض.

فعلاً ما كدنا نبتعد عن البنك، حتى أقدمت قوى الأمن على تطويق المكان، وضربت المتظاهرين بعنف شديد متسببة بجروح خطيرة، مستخدمة القوة المفرطة، لإخضاعهم للتفتيش الجسدي الكامل، بحثاً عن الدولارات المسروقة، ولم يكن الهدف في هذه المرة تفريقهم، بل توقيفهم ومنعهم من مغادرة المكان، وقع عدد كبير من الجرحى بين الموقوفين نتيجة لإطلاق الرصاص المطاطي

والغاز المسيِّل للدموع، في هذه اللحظة أدركت، بأنه من المستحيل أن أتمكن من الحصول على مبلغ محترم من خلال مشاركتي في هذه المظاهرات.

أصبح الذهاب يومياً إلى ساحة رياض الصلح نوعاً من عادة لا أستطيع مقاومتها، حيث أجلس مع أبو أيمن تحت التمثال المنصوب في وسط الساحة، نتسامر لقتل الوقت، بالأحاديث السياسية حول أحوال البلد، وخلال هذا الوقت، يقوم أبو أيمن بتصريف حبات الكبتاجون إلى معارفه الموجودين بالساحة، تشجع أبو أيمن وسألني: «لماذا لا تشاركني في بيع هذه الحبوب»؟ وجدت هذه الفكرة هوى في نفسي، فوافقت مباشرة عليها من دون تردّد؛ لأنه عليَّ مواجهة مخاوفي من الشرطة بالقيام بالأمور التي أخشاها، لقد شرح لي بأنه يشتري الحبة بالجملة من تاجر يعرفه بنصف دولار، ويبيعها بدولار واحد، وهو على استعداد لتأمين الكميات التي أريدها من تاجر الجملة، مقابل أن أعطيه عشرة بالمئة «كمسيون» مقابل أتعابه، فهززت رأسي بالموافقة، وتصورت بأنني لو جنيت بعض النقود من هذه العملية، فسوف يتحسن وضعي أمام ناديا.

غدت مشاركتي بالمظاهرات يومياً نوعاً من العمل والمتعة، في الوقت نفسه، قدَّمني أبو أيمن لمعظم معارفه في ساحة رياض الصلح، فأصبح الكثيرون منهم من زبائني، ولأول مرة أحسست

بسهولة الحصول على الدولارات من دون جهد كبير، كنت أقنع نفسي طوال الوقت، بأن حبوب الكبتاجون ضرورية لهؤلاء الشباب، لكي يحتفظوا بنشاطهم وشجاعتهم، وليستمروا في مقاومة رجال الجيش والشرطة، وأنا أقوم بدوري، بشكل غير مباشر، في إسقاط هذه الطبقة الحاكمة الفاسدة.

في أحد الأيام.. وبعد أن انتهينا من بيع جميع الحبوب التي في جعبتنا، اقترح أبو أيمن أن نأخذ فتاتين جميلتين إلى شقتي لكي نكافئ أنفسنا، ونستمتع بتمضية الوقت معهما، رفضت هذه الفكرة فوراً؛ خوفاً من أن يشاهدني الجيران، وأنا أحضر بعض الساقطات إلى شقتي، فأشوّه سمعتي، لأن كل ما يعرفونه عني بأنني أرمل محترم متقاعد، أمضى عمره موظفاً في وزارة الصحة، لكن لمعرفتي الأكيدة بالوقت نفسه، بأن الحياة ليست ممكنة من دون حد أدنى من مناقضة الذات، لأنها معركة صعبة بين الوفاء للقيم التي تربينا عليها، وبين الرغبات الجنسية المكبوتة في داخلنا، والمرغمين على إشباعها لا شعورياً، ولحل مشكلتنا، لابد لنا من إضافة بعض البنود والاستثناءات على دستورنا الأخلاقي، لكي نتمكن من تسويغ بعض تصرفاتنا، من غير أن نشعر بتأنيب الضمير.

وافقت على الذهاب مع أبو أيمن إلى شقة مفروشة يعرفها في حيّ الحازمية، محاولةً مني للخروج من الحالة

النفسية التي أعيشها، لمَّا دخلنا الشقة، فوجئت بقذارتها وبالأضواء الحمراء الخافتة، التي تعطيها جوَّاً رخيصاً من الإثارة الجنسية، كانت مديرة البيت تجلس على كنبة بمفردها في صدر الغرفة، شقراء سمينة في الخمسينيات من عمرها، وعليها بقايا من آثار جمال باهت، ذهب مع أيام الشباب، أعطيتها عشرين دولاراً بناءً على طلبِ أبو أيمن، ثم نظرت حولي، فوجدت ثلاث بنات بشعات، ذوات بشرة سوداء غامقة نسبياً، يجلسن في زاوية الغرفة.

اقترح عليَّ أبو أيمن أن أمارس الجنس مع أي واحدة تعجبني منهن، ثم قام وتركني وحدي، ليأخذ واحدة من البنات إلى إحدى الغرف الفارغة، فهو كما ذكر لي، مدمن على هذه الأوكار، ويتردد عليها بصفة شبه يومية، انتابني شعورٌ بالقرف من البنتين، وخطر لي أن أختار مديرة البيت، ولعلها شعرت من نظراتي الشهوانية نحوها، بما يجول في خاطري، فقالت لي: «عندي بنت صغيرة ستعجبك»، كانت الغرفة التي أشارت إليها المدام مشغولة، فجلست أنتظر دوري، بعد قليل خرج الزبون من الغرفة، فأشارت عليَّ بأصبعها إلى الباب لدخول الغرفة.

ما إن دخلت الغرفة حتى أذهلتني المفاجأة، فالفتاة التي تتمدد عاريةً على السرير بنيّة اللون، تقاطيع وجهها ناعمة، بالمقارنة مع البنات الجالسات في الصالون، وهي في العشرينيات من عمرها،

ففكرت أنَّ باستطاعتي استعادة شبابي معها، وتحت وطأة الإثارة، بمنظر صدرها الصغير المكتنز العاري، مارست الجنس معها، وبينما كنا نغادر هذه الشقة التعيسة، لاحظ أبو أيمن تعابير وجهي التي أظهرت استيائي من وضعنا الحالي، وتبيّن لي بأن المدام تقوم باستقطاب الخادمات الأثيوبيات الصغيرات، والمطرودات من منازل بيوت أسيادهن، إلى هذه الشقة، وهي تجري عليهن الكشف الطبي بشكل روتيني، للتأكد من خلوّهنَّ من الأمراض الجنسية.

أخبرت أبو أيمن بأنني بطبيعتي أشعر بالنفور من البنات ذوات البشرة الغامقة، فأجابني: «إنه يعرف بيتاً ثانياً، جميع البنات فيه شقراوات من أوروبا الشرقية، ولكن عليَّ أن أدفع مئة دولار، وهو جاهز ليأخذني إليه متى أشأ»، مع مرور الوقت، بدأت أكتشف أن هذا الرجل يتميز بذكاء فطري حاد، ولديه القدرة على خلق علاقات اجتماعية جيدة مع كل أصناف البشر، إنه من المفروض أن يكون أكثر من عامل بناء.

أيقظني رنين الجوال، وسمعت صوت ابنتي على الطرف الآخر: «هل أيقظتك من النوم؟ الساعة العاشرة الآن، ولم أكن متوقعةً أنك نائم حتى الآن، إنني بحاجة إلى مئتي دولار، لتسديد القسط المدرسي للولدين، لقد ذهبا البارحة إلى المدرسة، فلم يُسمح لهما بالدخول، لأننا لم نسدد القسطين».

فكرت لحظة: «سأرسل لك مئتي دولار عن طريق مكتب نقليات المأمون العامل على خط ضيعتك»، فسمعتُ صوتها تتشكرني، وهي تدعو الله، بأن يديمني فوق رأس العائلة، أغلقت الجوال بسرعة، لكي أعود إلى النوم من جديد، لكنني عبثاً كنت أحاول ذلك، تصورت أنني في أثناء حلمي، كنت أعرف بأنني أحلم.

الفصل الثالث

اعتدت على تناول حبوب الكبتاجون بشكل نظامي، ما أعطاني الإحساس بالسعادة والطاقة، وزاد من قدرتي على التركيز على مشاكلي اليومية، أصبحت أتصور بأنه لا يمكنني الاستمرار في حياتي من دونها، على الرغم من المشاكل الجسدية التي بدأت أعانيها من قلة النوم، والسهر لساعات طويلة مستلقياً على فراشي، وأنا أستعرض في مخيلتي صورة ناديا، وأسمع همسات صوتها المبحوح في أذني، وعند تلاشي مفعول الحبة، تعاودني نوبات الكآبة، فأضطر إلى بلع حبة ثانية، لكن أكثر ما كان يزعجني، ويسبب لي القلق، هو ازدحام أفكاري الذاتية، بصور سلبية مشوشة عن حوادث سيئة لا أتوقعها، قد تحدث في المستقبل.

أصبح وجود أبو أيمن والمشاركة اليومية في المظاهرات وسيلةً لإعطاء معنى جديد لحياتي، فأنا أعمل لمساعدة الناس ضد هذه الطبقة السياسية الظالمة، إضافة إلى حوالي الثلاثمئة دولار، التي أجنيها شهرياً من بيع حبوب الكبتاجون.

تحدث أبو أيمن بشكل مرتبك في أثناء جلوسنا على الرصيف بالساحة: «إن كل هذه المئات من الدولارات التي نحصل عليها، لا تساوي المخاطرة بالذهاب إلى السجن من أجلها، إنها فتات خبز، وإننا سنبقى شحاذين طوال عمرنا، لو استمررنا على هذا المنوال، وسننتهي يوماً ما في السجن».

لقد اكتشف طريقة مضمونة وشريفة لجني النقود بسرعة، هنا سألني: «هل تعرف العرافة فاطمة البيروتية»؟ فأجبته: «طبعاً، فجميع أهل بيروت يعرفونها»، فردَّ عليَّ: «إنه قد تعرف بالمصادفة على مساعدتها الأثيوبية آديلي، وأمضى الليلة الفائتة معها، وهي على استعداد لمساعدتنا، وإنه يخطط للقيام بجلسة سرية لتحضير الأرواح في شقتي، حيث إني أعيش بمفردي، ولا يمكن لأحد أن يعرف بما نقوم به»، فهززت رأسي بالموافقة من دون تردد، فتحت تأثير حبوب الكبتاجون، أصبح الفراغ الموجود في داخلي مملوءاً بالغضب على هذه الطبقة الغنية التي لا أنتمي إليها، وصار عندي الاستعداد للقيام بأي مغامرة من أجل الحصول على الثروة، وبأسرع طريقة ممكنة.

بينما نحن منهمكون ببيع حبوب الكبتاجون، هزَّ أبو أيمن كتفيه وأخبرني: «بأنه سيحضر هذا المساء في حوالي الساعة الثامنة إلى شقتي، مصطحباً معه الأثيوبية آديلي مع قريبتها» اعترضت في بادئ الأمر على حضور قريبة لآديلي لشقتي؛ خوفاً على سمعتي من سكان البناية، هنا تبسَّم أبو أيمن: «إنك صرت مثل المرأة المطلقة، تعمل السبعة وذمتها، وبعد ذلك تخاف على سمعتها»، المشكلة أنَّ الأرواح المستحضرة لا يمكن أن تأتِي إلى الجلسة، إلا إذا كان المشاركون فيها أربعةً أو أكثر، فلم أجد بدَّاً من الموافقة، ولم أجرؤ على القول بأنني كنت قد اتصلت مع روح المرحومة خالتي بدرية منذ عدة أشهر، عندما كنت تحت البنج في غرفة العمليات.

في المساء، وعند الساعة الثامنة جاء أبو أيمن، ومعه فتاة ممتلئة، قصيرة، داكنة البشرة، في الأربعينيات من عمرها، تحمل في يدها كيساً بلاستيكياً أبيض، عرَّفتني على نفسها بأنها آديلي، ترافقهما فتاة سوداء، نحيفة، طويلة، وناعمة التقاطيع، اسمها آليس، كان بودّي أن أقول بأنها جميلة، لكن ما تقوم به المحطات التلفزيونية في لبنان، من تحديد معايير الجمال لبطلات المسلسلات التلفزيونية، وربطها بلون بشرتهنَّ البيضاء وعيونهن الملونة وشعرهن الأشقر، جعلني أخجل من نفسي، للاعتراف بأنها امرأة جذابة، وأنَّها أيقظت في نفسي رغبات جنسية قوية كانت نائمة.

جلسنا حول الطاولة المستطيلة في غرفة الجلوس، فتحدثت آديلي بلهجة بيروتية مكسرة: «إن الأرواح تفضّل أن تكون الطاولة بيضوية، ليس لها زوايا حادة مثل هذه الطاولة»، فأدركت من لكنتها الخفيفة، بأنها مقيمة في بيروت منذ مدة طويلة، وكان جوابي لها: «إن هذه هي الطاولة الوحيدة الموجودة في شقتي»، ثمَّ أخرجت من كيسها البلاستيكي أربع شمعات، لتماثل عددنا الموجود حول الطاولة.

قامت بوضع كأس ماء ورغيفٍ من الخبز على منتصف سطح الطاولة، لتشجيع الروح على الحضور لجلستنا، وطلبت منا إطفاء جميع الجوالات وإخراجها من الغرفة، ليعم الهدوء التام على أجواء الجلسة، بعدها أشعلت الشمعات، وأمسكنا أيدي بعضنا بعضاً، ثم قامت آديلي بنفسها، بإطفاء «النجفة» الوحيدة المعلقة في سقف الغرفة، عادت أدراجها، وأخذت مكانها على صدر الطاولة، وبدأت تتفوّه بكلمات غير مفهومة، بدت لي وكأنها في الآرامية، بعدها رفعت صوتها وأخذت تقول بالعربية: «عزيزنا، مروان الأحمدي، جينا وجبنالك الهدايا «اللي» بتحبها... لنذكرك بالصلة التي كانت تجمعني معك، في بيت فاطمة البيروتية... والتي ستستمر من الحياة إلى ما بعد الممات، تواصل معنا فنحن بحاجة إلى مساعدتك».

أخذت تكرر هذه العبارة لأكثر من خمس مرات، ولم يحدث

شيء في الغرفة، فجأة! أضاءت اللمبات الكهربائية الثلاث الموجودة في داخل «النجفة»، لعدة ثوانٍ، ثمَّ انطفأت، جحظت عينا آديلي من الرعب، ففهمت بأن الروح قد حضرت، شكَّل إشعال اللمبات ثمَّ إطفاؤها صدمة نفسية لنا، وشعرنا بالهلع، على الرغم من معرفتنا المسبقة، بأن الروح قد تحضر إلينا في أي لحظة.

سألت آديلي الروح، فيما إذا كانت على استعداد لمساعدتنا، للحصول على المال، فتصورنا بأننا سمعنا صوت طرقة خافتة، وكأنها صادرة من زاوية الغرفة، وهذا يعني في علم الروحانيات بحسب ما شرحته لنا آديلي قبل الجلسة، بأن الطرقة الواحدة تعني نعم، بينما الطرقتان فتعنيان كلا، ثمَّ طلبت آديلي بكل أدب، من الروح أن تنصرف، بعد أن وعدتها بأنها ستستدعيها مرة ثانية، ثمَّ أطفأت الشمعات الأربع، وطلبت منا فك أيادينا المتشابكة، وهكذا انتهت هذه الجلسة.

لم أستطع أن أفهم ماذا يجري على الطاولة، فسألت آديلي عن مروان الأحمدي، فأجابتني بأنه مليونير، كان يحضر معها جلسات الزوار في منزل فاطمة البيروتية، وعنده خبرة طويلة في القضايا المالية وسوق البورصة، لكنني لم أستطع أن أخفي استيائي من آديلي، لأنها أنهت الجلسة بسرعة، من دون الحصول منه على المعلومات اللازمة لصنع الثروة، التي كنّا جميعاً نحلم

بها، فأجابتني: «بأن هناك بعض الأدوات الخاصة، التي نحتاجها للتواصل مع روح المرحوم، وسوف تجلبها معها بالجلسة القادمة»، فشعرت بنوع من الاطمئنان، كان التعب من كثرة التوتر الذي عانيناه، خلال هذه الجلسة، قد بلغ أقصاه، فأخذ أبو أيمن جواله، وطلب سيارة أجرة، وعند وصولها، انطلقوا جميعاً عائدين إلى بيوتهم.

التقيت مع أبو أيمن صباح اليوم التالي في ساحة رياض الصلح، أخبرني بأننا كنّا محظوظين، لأن الجلسة نجحت مئة بالمئة، وأنه اتفق مع آديلي على تقاسم المبلغ الذي نحصل عليه بالتساوي بيننا نحن الثلاثة، وسوف تدفع آديلي من حصتها أتعاب قريبتها آليس، كل ما علينا الآن، هو المحافظة على هدوئنا، كما اتفق مع آديلي على أن تكون الجلسة القادمة، في الموعد نفسه بعد غد في شقتي.

أصبحت بحكم العادة أجد صعوبة في الاعتراض على قرارات أبو أيمن، حتى ولو كانت تمس حياتي الشخصية، ولعلَّ ذلك يعود إلى خوفي من أن أخسر صداقته، لكني استجمعت شجاعتي في هذه المرة، وسألته: «كيف توافق على إعطائها ثلث الأرباح»؟! هنا تغيرت تعابير وجهه، وحملق بي بعمق، بعينيه السوداوين الواسعتين، وكأنه شعر بأنني أتحدى قراره، وقال لي: «لو أنها ما بتحبني لما رضيت بأقل من النصف، هناك عشرات

الأشخاص يتمنون لو أنها ترضى بأن تتعامل معهم، إضافة إلى أن روح المرحوم، ستؤمن لنا الحماية، شاهدت بنفسي في إحدى الجلسات، روحاً استحضرتها آديلي، قامت برفع الطاولة التي كنّا نجلس حولها متراً بالهواء، إن للأرواح تأثيراً في الأشياء المادية التي من حولنا، وليخفف من سخونة المناقشة، تابع بأنه لاحظ بأن قريبتها آليس، كانت ترمقني بنظرات الإعجاب، وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، بينما ناديا التي تحبها فهي في الخمسينيات، مدتها خالصة».

قررت في هذه اللحظة أن أجابهه مهما حصل، لكيلا يتمادى بالتدخل في حياتي العاطفية، وأضاف بسرعة: «لكن إذا قررتَ التخلص من زوجها، فمالك غيري»، فاستعدت هدوئي بعد سماعي لهذه العبارة، فلربما قد أكون فعلاً بحاجة إلى خدماته في المستقبل، لكنه يتلاعب بي، فساعة يأخذني إلى اليسار، وساعة إلى اليمين، لقد أصبح يعرف نقاط ضعفي، ما جعلني في موقف لا أحسد عليه، صحيح أنه غير متعلم، ولكنه رجلٌ خطيرٌ، وعليَّ أن أكون أكثر حذراً منه.

في تلك الليلة، وفي الموعد المحدد، حضرت المجموعة نفسها إلى شقتي، جلسنا مثل المرة الماضية حول الطاولة المستطيلة، أخرجت آديلي من حقيبتها ورقة بيضاء مربعة، مرسوماً عليها دائرة باللون الأحمر، ومن مركزها، تنطلق خطوط مستقيمة

حمراء، لتتقاطع مع محيطها، بحيث أصبح سطح الدائرة مقسوماً إلى ثمانٍ وعشرين قطعة متساوية، في كل واحدة من هذه القطع، مكتوب باللون الأسود حرف هجائي واحد من اللغة العربية، قلبت فنجان القهوة ووضعته فوق مركز الدائرة، طلبت من كل واحد منا أن يضع سبابته فوق الفنجان، أطفأت الأنوار، وبدأت تعيد الطقوس نفسها التي أجرتها بالمرة الماضية، مناشدة روح مروان الأحمدي أن تحضر حسب وعدها السابق.

فجأة بدأ الفنجان يهتز تحت أصابعنا، بحيث أحسسنا بأننا أصبحنا غير قادرين على السيطرة عليه، بالنهاية توقفت أذن الفنجان فوق الحرف دال، فقام أبو أيمن بتسجيل «دال» على قطعة الورقة البيضاء الموجودة بجانبه، ثم أعادت آديلي وضع الفنجان على مركز الدائرة، وبشكل يتنافى مع المنطق الطبيعي، بدأ الفنجان يهتز من جديد، لتتوقف أذنه فوق الحرف واو، كررنا العملية نفسها فتوقفت أذنه، فوق اللام، وبعدها فوق الراء، واستمرت آديلي في وضع الفنجان فوق مركز الدائرة، حتى توقف الفنجان تماماً عن الحركة، لنحصل بالنهاية على: «دال- واو- لام- راء- ألف- سين- واو- دال»، ثم أخذت آديلي الورقة من أبو أيمن، وبدأت بربط الحروف مع بعضها بعضاً، ولم أصدق عينيَّ عندما كانت الجملة، بعد تجميع الأحرف، «دولار أسود».

بما أنني الشخص المتعلم الوحيد بين هذه المجموعة، فقد

أدركت أنها تعني الدولار القادم من القارة الإفريقية السوداء، وحسب ما أسمع، فإن التجار اللبنانيين المهاجرين إلى إفريقيا، يقومون بتهريب دولاراتهم من بلد الاغتراب إلى وطنهم لبنان، مستغلين أدوات كثيرة للتحايل والالتفاف على قيود البنوك المركزية، في هذه الدول الإفريقية، التي تمنع تداول الدولار خارج جهازها المصرفي، ولما كان عندي بعض الأقارب في إفريقيا، فكنت أسمع بالكومسيونات الهائلة، التي يحصل عليها الصرافون نتيجة تهريب الدولارات من إفريقيا إلى لبنان، مستغلين فرق السعر بين الرسمي المحدد في البنوك، وسعره الحقيقي في السوق السوداء، بدأت أنتقي في مخي الكلمات السهلة، لكي أشرح لهم هذا الموضوع بشكل مبسط، وليتمكنوا من استيعابه.

قطع صوت أبو أيمن ظلَّ الصمت المخيم علينا، واستلم الحديث، كعادته في كل مرة، وبدأ يشرح بكل ثقة، معنى الدولار الأسود، فذكر بأنه يعرف الدولار الأسود منذ صغره، لأن تجار الحشيش في قريته بمحافظة البقاع يستخدمونه منذ زمن بعيد، حيث يقوم هؤلاء التجار بدهن الدولارات الحقيقية بمادة شمعية سوداء لحمايتها من الماء والعوامل الخارجية، ودفنها أحياناً في الصناديق تحت التراب، كما أن الدهان يسهل حمايتها في أثناء نقلها من منطقة إلى أخرى، وهذه الطريقة تستعملها جميع المافيات، وتجار المخدرات في كل أنحاء العالم، ليقوموا لاحقاً

باستخدام الخل، أو محلول كيميائي معيّن لإزالة الشمع الموجود على الدولار الأسود، وبعض هذه الدولارات السوداء قد تكون مجمدة، أي إنها دولارات حقيقية، لكنها غير قابلة للتداول سوى محلياً، لأنها ناتجة عن عمليات سرقة أو تهريب مخدرات، وأرقامها المتسلسلة معروفة لدى البنوك المركزية، وهذه الحالة أصبحت الآن في لبنان مكشوفة، حيث إن بعض مروجي الدولار الأسود، ينشرون إعلاناتهم لبيع الدولارات بوضوح، على مواقع التواصل الاجتماعي، مع أرقام هواتفهم، للتواصل معهم لشراء الدولارات، مستغلين حالة الفوضى المنتشرة في البلد، غير آبهين للقوانين التي تمنع تداول هذه الدولارات.

إن الحاجة الماسّة للدولار في السوق السوداء، شجعت الناس على استخدام هذا النوع من الدولارات، في أعمال الصيرفة المحلية والتجارة الداخلية، وهو يتصور أن نسبة الدولار الأسود المسوَّق حالياً، هو بحدود عشرة بالمئة من حجم الدولارات المتداولة في السوق اللبنانية.

ما كاد أبو أيمن ينتهي من محاضرته، حتى شكرت الله، على أنني لم أبدأ الخوض بالحديث قبله، وإلا لكان مقدار جهلي بالأمور المالية قد انكشف للمجموعة، ما قد يقلل من قيمتي في نظرهم، واقترح أبو أيمن على آديلي أن تبقى لتمضية الليلة في شقتي، فوافقت، ونامت آديلي مع أبو أيمن في غرفة المرحومة

زوجتي، دخلت مع آليس إلى غرفتي، مبرراً لنفسي بأن الحياة لا يمكن أن تتوقف عند فقداني لزوجتي، وبينما كانت آليس مستلقية إلى جانبي، أيقظني منظر بطنها المسطح المشدود، من تصوراتي السابقة لناديا، وتخيلت جسمها المترهل، فهي الآن امرأة، في الثامنة والخمسين من عمرها.

حين أضع رأسي على وسادتي لأنام، أسترجع الكثير من الوساوس وذكريات الماضي، وأحياناً أفكر بالحادثة الرهيبة التي مررت بها، وأنا تحت تأثير البنج في غرفة العمليات بالمستشفى، لما كانت روحي تسبح في نهاية النفق، وسط هذا النور الباهر الذي لا يشبهه شيء في هذا العالم، ينتابني شعور غامر بالفرح والسعادة، وعدم رغبتي في العودة إلى هذا العالم المملوء بالتعاسة، والبقاء هناك عند أمي، لكن تجربتي انتهت رغماً عني عند هذا الحد، ورجعت إلى جسدي، عائداً من الموت، حاملاً معي تجربة ستطبع حياتي إلى الأبد، وعادةً لما أستيقظ، بعد هذه التخيلات، أجد نفسي مكتئباً، تلازمني رغبة قوية بالبقاء في الفراش.

لم أذهب في صباح اليوم إلى الساحة، وبقيت في فراشي محبطاً وغارقاً في هذه الأفكار الجنسية الغريبة، التي تدور في رأسي، والتي أخجل من أن يطَّلع معارفي عليها، بالنهاية تحاملت على نفسي، ونهضت من الفراش، فأشعلت سيجارة الحشيش، وما كدت أسحب النفس الأول منها، حتى رنَّ جرس الجوال،

وسمعت صوت أبو أيمن: «وينك يا زلمة.... يجب أن تحضر حالاً إلى هنا، علينا مقابلة زبون بعد ساعتين....».

كعادتي، لم تعد عندي القدرة لرفض طلباته، لملمت نفسي، وذهبت إلى الساحة، حين وصولي إلى هناك، نبهني: «شد حيلك، لقد اتصلت منذ قليل بجوالي، مع شخص وضع رقم هاتفه على الفيسبوك، للتواصل معه من أجل شراء دولارات سوداء، واتفقت معه على أن نلتقي بشقته في الساعة الثانية عشرة ظهراً»، وبالفعل أخذنا تكسي، واتجهنا إلى بيت هذا الرجل، في حي المصيطبة القريب من بيتي.

فتح لنا الباب شخص في الأربعينيات من عمره، ارتحت إليه، ويبدو من منظر بيته بأنه ميسور الحال، قدَّم لنا كأسين من الشاي، ثم أعطى أبو أيمن رزمة سوداء من الدولارات، فيها عشر ورقات من ذات المئة دولار، استلمها أبو أيمن بيده، وأخذ يحملق فيها بتمعّن، ثم مرر سبابته ببطء على سطح كل ورقة على حدة، ليحس باللمس، بعلامة الدولار الخاصة ورقمه، على الرغم من طلائه بالورنيش الأسود، لأن الدولارات المزورة قد تكون ملساء بشكل كامل، ثم قال: «إنها دولارات حقيقية»، طلب صاحب البيت مبلغ خمسمئة دولار مقابل الألف دولار، فاعترض أبو أيمن على ذلك، لأنه في بعض الأحيان، عند استعمال المواد الكيميائية، لإزالة الشمع الأسود، قد تتعرض الألوان الموجودة

على سطح الدولار للتلف، بسبب سوء مواد التشميع السوداء التي تم طلاء الدولارات بها، أو لانقضاء فترة طويلة من الزمن على وجود الدهان الأسود على سطح ورقة الدولار، ما يجعل من الصعوبة إزالته، وحينها تتلف ورقة المئة دولار وتصبح قيمتها صفراً، وفي هذا خراب بيوت، وأخبره بأن ميزانيتنا لا تسمح لنا، بدفع أكثر من ثلاثمئة دولار لهذه الألف، وبعد أخذ وردّ، وافق صاحب الشقة على أن ندفع له ثلاثمئة وخمسين دولاراً، وأخذنا رزمة الدولارات وانصرفنا من عنده.

في أثناء الطريق أخبرني أبو أيمن أنه سيسافر غداً إلى قريته في البقاع، حيث يعرف صيدلياً هناك منذ زمن طويل، يقوم بإزالة اللون الأسود من على سطح ورقات الدولار، وسيدفع له خمسين دولاراً مقابل ذلك، وطلب مني الدعاء له لكي تنجح هذه العملية، وإلا فسوف نكون في ورطة كبيرة، وذكرني بأنه عليَّ أن أدفع له مبلغ مئتي دولار، مقابل حصتي من هذه الصفقة، فهززت رأسي بالموافقة.

عاد أبو أيمن بعد يومين من قريته مبتهجاً، بعد أن تمكن من مسح الدهان الأسود من على سطح أوراق الدولارات، فاستعادت الأوراق قيمتها الحقيقية، وأصبحت تساوي من جديد، ألف دولار، رجعنا إلى عادتنا في الجلوس بالساحة، وبيع حبوب الكبتاجون، والمشاركة في المظاهرات للتسلية وقتل الوقت، لقد

أصبح تركيزنا الآن منصباً على القيام ببعض الأعمال التجارية؛ لتحسين أوضاعنا المعيشية، مضت عدة أيام، من دون أن نتمكن من عقد أي صفقة لشراء الدولار الأسود.

مرَّ أكثر من أسبوع عن توقفنا عن العمل، حتى قرأ أبو أيمن مرة ثانية إعلاناً على الفيسبوك، ومعه رقم هاتف جوال صاحبه، للاتصال به، من أجل شراء الدولار الأسود، أخذنا تكسي وذهبنا إلى مرآب سيارات خارج بيروت، بالقرب من بلدة سن الفيل، قابلنا عاملاً ميكانيكياً طويلاً، على وجهه آثار ندبة من آلة حادة، فبدا شكله، وكأنه من أصحاب السوابق، لم أرتح لمنظر هذا الشاب، وأجلسنا على بلوكات إسمنتية، موضوعة على أرضية المرآب المهجور، أخرج الشاب من كيس بلاستيكي أسود بجانبه، رزمة فيها خمسون ورقة من ذات المئة دولار، أخذها أبو أيمن، وأخذ يتفحصها كعادته بهدوء، ثم مرَّر سبابته على الأوراق ليتحسس الأرقام المطبوعة عليها، وبعدها قال: «إن الدولارات حقيقية» طلب صاحبها مبلغ ثلاثة آلاف دولار مقابل خمسة الآلاف المدهونة بالورنيش الأسود.

بعد أخذ ورد، استمر أكثر من عشر دقائق، وافق صاحبها على أن يبيعها، بمبلغ ألفين وخمسمئة دولار، وتمت الصفقة، واتفقنا على أن نعود غداً إليه، بهذا الوقت نفسه حاملين كامل المبلغ، من أجل الحصول على هذه الدولارات السوداء، فطلب

صاحب الدولارات منا على الأقل، بأن ندفع رعبوناً رمزياً لتثبيت البيعة، فاعتذر أبو أيمن، بحجة أننا حالياً لا نحمل أي مبلغ، استغربت من تصرفه، لعلمي بأنه يحمل دائماً مبلغاً لا بأس به من الدولارات في كيس قماشي يضعه تحت قميصه الداخلي، لم أتدخل في هذا الجدال، لمعرفتي بأن أبو أيمن أكثر شطارةً مني في هذه الأمور.

بعد أن ابتعدنا عن ورشة السيارات المهجورة، أعلمني أبو أيمن: «إن الدولارات مزورة»! فسألته: «لماذا قلت له بأن الدولارات حقيقية»؟ فهزَّ برأسه: «لو أخبرناه بأن الدولارات مزورة، لما خرجنا أحياء من هذه الخرابة، فسيقتلنا ويأخذ كل ما معنا من نقود، ويشلحنا ثيابنا ويبيعها، ويدفننا في التراب تحت أرضية المرآب، ولن يجدنا أحدٌ»، مع مرور الوقت، بدأت أتأكد في كل يوم، من ذكاء أبو أيمن.

ونحن جالسون ندردش بالساحة تنهّد أبو أيمن: «على هذه الحالة، ليست الأمور على ما يرام، وسنبقى شحاذين طوال عمرنا، علينا التفكير جدياً بشراء آلة نسخ من نوع جيد لتصوير المستندات»، ففهمت مباشرة من كلماته، بأنه يفكر بتصوير الدولارات، ثم دهنها بالورنيش الأسود، وبيعها في السوق السوداء، على أنها دولارات حقيقية، وبعد هذه المقدمة، شرح لي بالتفصيل، بأن أنسب مكان لوضع هذه الآلة هي شقتي، لم

أتردد، ولو لثانية واحدة، في رفض هذه الفكرة، وأفهمته بأنني لست على استعداد لأتحمل هذه المخاطرة، ولا سيما أن عندي ابنةً وحيدة، وأنا المسؤول عنها.

تغيرت تقاطيع وجهه كعادته، عندما يتملكه الغضب، والتفت نحوي ممتعضاً: «تريد مني أن أتحمل مسؤولية كل شيء وحدي، وبعدها تريد أن تقاسمني الأرباح»، كان صارماً في جوابه، ولم يترك لي الخيار، فسألته: «كيف يمكن أن تحصل آديلي على الثلث، وهي لا تتحمل أي مسؤولية»؟ فأجابني: «إن دورها سيأتي قريباً، حيث إنه عليها أن تقوم بتصريف عشرات الآلاف من الدولارات السوداء في السوق».

وصلنا في مناقشتنا إلى النقطة التي يجب عليَّ أن أختار فيها، بين الانسحاب من شراكتي مع أبو أيمن، أو القبول بوضع آلة التصوير واستخدامها في شقتي، وتحت تأثير الطمع بآلاف الدولارات التي سوف أجنيها، من شراكتي معه، وثقتي الكبيرة بقدرته، على حل المشاكل التي قد تواجهنا، رضيت على أن أخفيها في شقتي.

بمجرد موافقتي على عرضه، اقترح أن نذهب مباشرة لشراء آلة النسخ الصغيرة، وكأنه قرأ لغة جسدي، وفهم بأنني متردّد، ومن المحتمل أن أغير قراري في أي لحظة.

ذهبنا إلى أحد معارض بيع الكومبيوتر، أخذ أبو أيمن يشرح للبائع حاجتنا إلى آلة صغيرة للنسخ، شريطة أن تكون النسخة المصورة، بجودة النسخة الأصلية نفسها، فنصحنا البائع بشراء طابعة إتش بي، فهي صغيرة وخفيفة الوزن وصورها دقيقة، وسعرها معقول، فوافق أبو أيمن، وطلب إجراء تجربة عليها ليتحقق من دقة الصورة، قبل دفع ثمن الجهاز.

بعد إجراء ثلاث تجارب عليها، لم أصدق ما رأيت، لأنني عجزت عن التمييز بين الصورة الأصلية والنسخة التي صورتها الآلة، دفعنا ثمنها مئتين وعشرين دولاراً، وحملناها معنا، لقد عرض البائع علينا أن يقوم أحد موظفي شركته بنقل الآلة إلى مكتبنا، ووصلها بالفاكس مجاناً، لأن هذه الخدمة مشمولة بسعر آلة النسخ، لكن أبو أيمن رفض العرض، معللاً ذلك، بأن لدينا اختصاصياً بالمكتب، وظيفته بأن يقوم بهذه الأعمال.

أخذنا تكسي وذهبنا بالآلة مباشرة إلى منزلي، فقام أبو أيمن بنفسه بحملها إلى شقتي في الطابق الثالث، ووضعها في غرفة نوم المرحومة زوجتي، ثم وصلها بأقرب مخرج كهربائي، فأصبحت جاهزة للتصوير.

عندما انتهى من عمله سألته: «ألم يكن من الأفضل لو قام موظف الصالة بحمل الآلة إلى شقتي، وشبكها بالكهرباء»؟

فأجابني: «إن العيون مفتوحة على آلات التصوير، وأولاد الحرام كثُر في هذه الأيام، وعلينا أن نكون حذرين»، ثمّ غيَّر الحديث باتجاه آليس: «إنها صغيرة وجميلة وذكية، فلماذا لا تشغلها خادمة عندك في البيت؟ فأنت متقدم بالعمر، وبحاجة إلى من يطبخ لك أكلك، ويعتني بك في الليل، وسوف تساعدنا آليس بعمليات التصوير»، فذكرته بمقولتي المعتادة: «إني أخاف من كلام الجيران»، فتقمص شخصية الصديق الناصح: «أنت بدك تعيش حياتك على مزاجك، أم على مزاج الجيران؟ عليك أن تستمتع بما بقي لك من العمر، لأنك عندما تموت لن تأخذ نقودك معك إلى القبر»، كلمات أبو أيمن بدت كالوسواس الذي بات يسيطر على تفكيري، ليثير في جسمي نشوة غريبة، من مجرد التفكير بجسد آليس الأسود المشوق.

الفصل الرابع

أصبح أبو أيمن في الفترة الأخيرة أقل حماسةً، لفكرة تصوير الدولارات، لإدراكه بخطورة القيام بهذه الخطوة، وبدأ يؤجل تنفيذ هذه الفكرة من يوم إلى آخر، لكن الوضع الاقتصادي مازال يضغط علينا، وفقد راتبي التقاعدي قيمته الشرائية، كما فرضت البنوك سقفاً على السحب النقدي لا يزيد على مئة دولار، وبدا أن لبنان يتجه نحو الكارثة.

استعادت التجمعات في ساحة رياض الصلح زخمها، وبدأنا مع أبو أيمن نشعر أن البلد يتجه، ونحن معه نحو الجحيم، وأصبح الخلاص الفردي في هذه الظروف مستحيلاً، فعدنا من جديد للانضمام إلى المظاهرات التي تجتاح بيروت، انطلقنا من الساحة باتجاه منطقة الحمراء، حيث هناك فروع أكبر

المصارف في بيروت، مطالبين البنوك بالعدول عن القوانين، التي فرضوها على سحب مدخرات المودعين، لنجد بمواجهتنا عناصر من الجيش تقف مستعدة، أمام المصارف لحمايتها من غضب الجماهير.

حاول المحتجون تحطيم واجهات المصارف بالحجارة، واقتلعوا العدادات الآلية لوقوف السيارات، الموجودة على جانبي شارع الحمراء، وهاجموا بها رجال الأمن، محاولين اقتحام البنوك، فأطلقت قوات الأمن الغاز المسيل للدموع، والرصاص المطاطي على المحتجين، فتراجع المتظاهرون إلى شارع مدام كوري، وأخذوا يعيدون تجميع أنفسهم من جديد، وأقدم بعضهم على اقتلاع أشجار فتية من الشارع، استعداداً لمهاجمة رجال الأمن، وفي هذه الأثناء وصلت مجموعة دعم من الشباب المتمرد، وهي تحمل معها قنابل المولوتوف، لتبدأ الجموع بهجومها المعاكس من جديد.

عشرات الجرحى كانوا يتساقطون في هذه المعركة من الطرفين، تصور ضباط الجيش والشرطة، الذين يدافعون عن الحكومة، وهم بالحقيقة يدافعون عن الميزات والمكتسبات التي ربحوها من ارتداء ملابسهم العسكرية، بأن مطالب مئات الآلاف من المحتجين الذين اكتظت بهم الساحات، لن تتحقق، وسيعود الوضع إلى ما كان عليه، قبل بداية هذه الثورة، أما أبو أيمن

فكان يتصور بأنه قريباً ستبدأ المجاعة في لبنان، وعندها ستعم الفوضى، لتجد أقرب الناس إليك، يهاجمك في بيتك، ينتزع من يدك رغيف خبزك، ليطعم به أولاده الصغار.

في هذا الجو المشحون بالغضب واللا يقين، أصبح التمرد طبيعة ثانية لأكثر اللبنانيين، وصار من الصعب التعامل مع المؤسسات المالية الحاكمة، وابنتي لا تتوانى عن مطالبتي، بإرسال مئة وخمسين دولاراً شهرياً، لمساعدتها وعائلتها، على تخطّي هذه الظروف الصعبة التي يمرون بها، وأرباحي من بيع حبوب الكبتاجون مازالت على حالها، فأصبح الجلوس لمشاهدة مباراة كرة قدم على التلفزيون، وأنا أستمتع بلف سيجارة الحشيش، هو الملجأ المؤقت الوحيد، للهروب من الواقع المرير، فتذكرت مقولة لشكسبير، كنّا مررنا بها ونحن طلاب في مدرسة الفرير: «مع الزمن لا شيء يتحسن سوى النبيذ».

بعد شرائنا لآلة التصوير، لم يبق معنا، من أرباح صفقة الدولار الأسود السابقة، سوى حوالي مئتي دولار، وأخذت النقود تتسرب من بين أصابعنا كالماء، وأصبح القيام بعمليات الاحتيال في السوق السوداء أمراً بالغ الصعوبة، فتحت هذه الضائقة المجال، ليتحول قسم كبير من الناس إلى محتالين، ومن الصعوبة إمكانية الاحتيال على محتال.

عدت للتفكير مجدداً بناديا، وخطر لي تحت عقدة الوحدة التي أعانيها، ورغبةً لإشباع فراغي العاطفي، بأنه حان الوقت، لكي أقوم بخطوات عملية للتقرب منها، إني أصبحت كبيراً على أحلام اليقظة، فأخذت الهاتف الجوال واتصلت بها، شعرت من نبرة صوتها، بأنها فوجئت من مكالمتي الهاتفية، لكني تابعت حديثي بشكل طبيعي، لأخبرها بأني أفكر بزيارتها لأطمئن على حالها وعلى صحة زوجها، فتغيرت نبرات صوتها، وشرحت لي بأن زوجها نصف مشلول، وهو يلازم الفراش بشكل دائم، وهي قلما ما تغادر البيت، ويمكنني القدوم لزيارتها، من دون موعد حينما أشاء، اعتبرت بأن هذه العبارات هي دعوة تشجيعية للإسراع في مقابلتها، ما رفع من روحي المعنوية، وأزال الرهبة التي في داخلي من رؤيتها، بعد هذه السنوات الطويلة.

استعرت هاتف جوال أبو أيمن، الآيفون عشرة، وضعته في جيبي، وذهبت لزيارة ناديا، ماركة الجوال ونوعه يعطيان انطباعاً عن الأحوال المادية لصاحبه، إنه عدة النصب والاحتيال في عصر التكنولوجيا للغشاش الصغير، فتحت لي الباب، وبدأت أتخيلها كما هي قبل ثلاثين سنة، جلسنا في صالون ضيوف فخم، تدلت من سقفه ثريا كبيرة من الكريستال والنحاس الأصفر، وغطت الأرضية سجادة عجمية من الحرير منقوش عليها أشكال هندسية من اللون الأحمر القاني والأزرق الداكن.

جاءت خادمة فلبينية تحمل فنجانين من القهوة التركية، ما يؤكد أن صاحب البيت مازال ثرياً، بعد كل هذه الأزمات التي مرَّ بها لبنان، استلمت الحديث محاولاً تذكيرها بعلاقتنا في أيام المراهقة، فأحسست بأنها لم تكن مهتمة كثيراً بهذه الذكريات، سألتني عن عملي بعد أن لاحظت من ملابسي وهاتفي الجوال، بأن أموري قد تحسنت، وظهرت عليَّ آثارالنعمة، فأجبتها: «بأنني بعد إحالتي على التقاعد، بدأت أشارك بالمضاربة على العملات الرقمية، فلم تفهم قصدي، فشرحت لها بأنني أتاجر بالبورصة بالبيتكوين والإثريوم والريبل، وما كدت أنطق باسم البيتكوين حتى فهمت تماماً ما أعني، لأن كل اللبنانيين سمعوا على التلفزيون، بارتفاع أسعار عملة البيتكوين إلى أرقام جنونية، فعدَّلت من جلستها على الكنبة، وهذا يعني في لغة الجسد، بأنها أصبحت مهتمة بحديثي.

تطرقت بالحديث وسألتها عن صحة زوجها، فأخبرتني بأنه على حاله، منذ أن أصيب بالجلطة الدماغية منذ سنتين، وحركته محدودة، وهو بحاجة إلى من يساعده للذهاب إلى الحمام، وهو يعيش على الأدوية، وأن الأطباء لم يكونوا يتوقعون له أن يعيش إلى الآن، فأدركت من كلماتها، بأنها متبرمة من وضعها الحالي، فسايرتها: «إن أطباء هذه الأيام، نصفهم شهاداتهم

مزورة، والنصف الآخر كل همهم استنزاف المريض، للحصول منه على أكبر كمية من النقود، فمازحتني: «يمكن أنا موت ويظل هو عايش» فأجبتها: «بعيد الشر»، وتحدثتُ عن جمالها، وأنها ما زالت محافظةً على شكلها، وتبدو في عيني، في الأربعين من عمرها، وذكرتها بعلاقتنا الماضية، وكيف أنني كنت أسرق منها القبلات تحت الدرج، فلاحظتْ نظرة الفجور في عينيّ، فضحكت بمكر، ودارت عينيها بعيداً إلى سقف الغرفة، لتضع حدَّاً لهذا التواصل بالنظرات.

تشجعت وسألتها عن اسم الأدوية التي يأخذها زوجها بانتظام، فأجابتني: «إنها لا تعرف أسماءها، فهي بالأجنبية، ولكنها حسب فهمها فهي مسيلة للدم، ولمعالجة ارتفاع الضغط، وببساطة لم أكن أتوقعها، ذهبت إلى غرفة زوجها المريض، وعادت حاملة بيديها بعض علب الأدوية الملونة، أخذت العلب ووضعتها على الطاولة الصغيرة الموجودة أمامي، وصورتها بكاميرا الجوال، وأخبرتها: «إنني أعرف صيدلياً شاطراً وصديقاً لي في منطقة البقاع، وعنده خبرة طويلة في الأدوية، ويمكن أن أسأله لكي يعدل في جرعات الدواء، وربما قد ينصحنا بزيادة عدد الحبوب في جرعة بعض الأدوية، ما قد يساعد زوجك على الشفاء».

لم تتغير تعابير وجهها، وفهمت من سكوتها بأنها موافقة على فكرتي، وعندما مدَّت يدها لتأخذ علب الأدوية، من على

المنضدة، انتهزت هذه الفرصة، ومددت يدي، وأمسكت ساعدها بلطف، فلم تسحبه من يدي، ما أعطاني الجرأة لكي أقف على قدميّ، وأرفع رأسها قليلاً بيدي، وأقبّلها من فمها.

كنت خائفاً من ردة فعلها، فأنا لم أقبلها منذ أكثر من أربعين سنةً، ولكنها لم تسحب رأسها، ولم تمانع في ذلك، فتجرأت، ومددت يدي على صدرها، كما كنت أفعل في أيام سن المراهقة، فدفعت يدي بلطف، وتراجعت إلى الوراء، والتفتت وهي تضحك: «ما بدك تكبر.. بدك تضل مراهق طول عمرك».

وقبل مغادرتي، ذكرت لها بأنه قد يكون من الأفضل له، لو أنها تزيد عدد الحبوب الخافضة للضغط التي يأخذها بالجرعة الواحدة إلى ٦ أو ٧ حبات، وذلك بسحقها حتى تصبح بشكل بودرة، وبعدها يمكن إضافتها إلى الشوربة التي يتناولها بالمساء.

فهمت من تصرفاتها بأنها معي تماماً على الخط، وتستوعب كل ما أفكر به وتوافق عليه، ولا شك أن زوجها الكبير في السن، ميئوس من شفائه، ولكن من المستحيل تحديد موعد وفاته، لقد ضاق خلقها منه، ومن جو المرض الكئيب المخيم على البيت، وهي جالسة منتظرة موته بفارغ الصبر، وربما قد يكون قدره، بأن يعيش لعدة سنوات طويلة قادمة، بينما هي تموت في كل يوم، تتقدم بسرعة بالعمر، وتقل فرصتها مع كل شهر، للزواج بالشخص المناسب،

إضافة إلى أنه بعد وفاة زوجها الثري، سوف ترث ربع ثروته، ولا أدري فيما إذا كان سابقاً، قد سجل بعض أملاكه باسمها.

سوف تكون الزوجة المثالية لي في المستقبل القريب، هذا ما كنت أفكر به، وأنا أودعها عند باب منزلها، لقد وعدتها بأنني سأتواصل معها، وسأحضر لرؤيتها بعد زيارتي لصديقي الصيدلي، كل ما هو عليَّ فعله الآن، أن أجري الترتيبات مع أبو أيمن، لزيارة صديقه الصيدلي في منطقة البقاع، لأطلعه على قائمة الأدوية التي يتعاطاها زوج ناديا، لكي يحدد لي عدد الحبوب المناسبة، التي يجب على ناديا أن تعطيها لزوجها، حتى لا يثير الشكوك عند وفاته.

إنه من الخطورة التكلم بأشياء حساسة على الجوال، فجميع الخطوط مراقبة، والكاميرات في الساحات مراقبة، لقد استغلت الطبقة الحاكمة التكنولوجيا، لمراقبة اللصوص الصغار، أما السرقات الكبيرة والصفقات الدسمة، فهي تحدث علناً، في سهرات رجال الأعمال، وفي فيلات السياسيين والأغنياء الكبار، ارتاح ضميري من وصولي لهذه المقارنة، لقد وجدت عذراً سيساعدني نفسياً، على المضي في خطتي.

وأنا أعيد الجوال لأبو أيمن، حذرته من مسح صور علب الأدوية الموجودة على موقع الفوتو في جواله، وأخبرته بأنني

أريد أن أسافر معه، إلى صديقه الصيدلي في البقاع لمناقشته بموضوعها، فانبرى بعصبية: «يخرب بيت هالحكومة... ما بقي شيء إلا واختفى بالبلد، ما مشكلة لا تأكل هم الأدوية... صاحبي سيؤمنها لك... سواء تهريب من تركيا أم من قبرص».

ولم أحاول ان أصحح فهمه للموضوع، فمازال الوقت باكراً للخوض في هذا الحديث الخطير، ثم قال: «الحالة زفت، وإنه لم يعد معنا مصاري، وعلينا الآن أن نفكر جدياً بطريقة سريعة للحصول عليها، وهناك زبون أعطتني اسمه آديلي، وعنده ألف ومئة دولار أسود، وسنذهب غداً لمقابلته».

بالفعل ذهبنا في اليوم التالي لمقابلة هذا الشخص، وبعد أن تفحَّص أبو أيمن الدولارات كعادته بتمعّنٍ، أصدر حكمه بأنها حقيقية، وجلسنا في قعدة مساومة مع البائع لأكثر من نصف ساعة، ولم يبق اسم نبي من أنبياء الله إلا وأقسم البائع به، مردداً عبارة ما بتوفي معي، وبالنهاية دفعنا خمسمئة وخمسين دولاراً، وأخذنا هذه الرزمة، في هذه المرة، لم يأخذ أبو أيمن الدولارات إلى صاحبه الصيدلي، لإزالة الشمع الأسود عنها، بل اكتفى ببيعها بعد يومين إلى أحد دكاكين الصيرفة، في منطقة الغيري، بسبعمئة دولار، لقد أصبح واضحاً لدى أبو أيمن، بأنه لا يمكن أن نعمل نقوداً من وراء التجارة بالدولار الأسود، وعلينا أن نجد طريقة أخرى لعمل النقود.

كانت الساعة حوالي الخامسة مساءً، لقد غادرت أغلبية الشباب ساحة رياض الصلح، ولم يبق فيها إلا بعض المتسكعين والمتعطلين عن العمل، كنت جالساً على الرصيف بجانب أبو أيمن، وبينما هو مشغول بالنقاش مع أحد زبائنه، وأنا أسترق السمع إلى حديثهما، قال الزبون: «أعطني حبتي كبتاجون على الدَين... وغداً سأسدد لك قيمتهما، مع قيمة الحبات الأربع التي أخذتها منذ يومين...» فكان جواب أبو أيمن: «عليك أولاً أن تسدد فاتورة دَينك القديم، قبل أن أفتح لك صفحة بدَين جديد»، وأخذ الشاري يذكره، بأنهم زبائن منذ زمن بعيد، وأبو أيمن يردد: «ما بتوفي معي... ويقسم بالأنبياء، بأنه بحاجة إلى النقود لشراء بضاعة جديدة».

فجأة سمعنا صوت انفجار صغير، تبعه بعد ثوانٍ دوي انفجار هائل، وبحركة لا شعورية، نظرت إلى مصدره، فكان في جهة الغرب، لاحظت في الأفق الصافي الخالي من الغيوم، كتلة دخانية بيضاء، ارتفعت في السماء لأكثر من مئتي متر، ما لبث أن تحول لونها إلى بني غامق، على شكل سحابة فطر، سبقتها سلسلة من وميض أشبه بالألعاب النارية، ما ذكرني بمناظر انفجار القنابل الذرية التي نشاهدها بالأفلام الأميركية، وما أكَّد لي ذلك، أن بعض الأشخاص الموجودين بالساحة، بدؤوا يصرخون، قنبلة ذرية! قنبلة ذرية على المرفأ!

وبدأت الهواتف المحمولة في ساحة رياض الصلح، تنقل الأخبار المرعبة والمبالغ فيها، عن آلاف القتلى، وعشرات آلاف الجرحى، في المنطقة السكنية المحيطة بالمرفأ، فكان كل همي في هذه اللحظة، أن أتصل بابنتي، لأتأكد بأنها مازالت مع أولادها بخير، بعد أن أغلقت الجوال، شعرت براحة نفسية لم أعهدها منذ فترة طويلة.

أول ما ذكرته لأبو أيمن، بوجوب عودتي إلى البيت، لأحتمي من الغبار الذري، الذي سينتشر في الجو بعد قليل، هنا استوقفني: «لا تصدق كل ما تسمع... كبّر عقلك، لو كانت قنبلة ذرية، ما كان حدا منا هون، علينا أن نمشيَ باتجاه المرفأ، لنشوف شو صاير».

أصبحت حالتي مزرية، فأنا لا أستطيع أن أرفض طلباً لأبو أيمن، واتجهنا سيراً نحو المرفأ.

عندما اقتربنا من منطقة الانفجار، شاهدنا سيارات الإسعاف تشقُّ طريقها بطيئة باتجاه المرفأ، في وسط ازدحام شديد من الناس الهاربين من أبنيتهم، والمتجمعين في الشوارع، كان بعضهم غارقاً في الصمت، والبعض الآخر جالسٌ على الأرصفة، وكأنهم لا يصدقون ما يجري حولهم، وكان هناك بعض الجرحى، والنّاس مجتمعة حولهم، لتضميد جروحهم بالمناشف وقطع القماش.

وفي الأثناء، شاهدت شخصين لقيا حتفهما، متسمّرين تحت كتلة إسمنتية كبيرة، سقطت من واجهة أحد الأبنية، أما في الجهة المقابلة، فكانت السيارات الخاصة تسرع في الاتجاه الآخر، وهي محملة بالجرحى إلى المستشفيات، وكنا كلما اقتربنا من المرفأ، شاهدنا بوضوح المباني والمطاعم المدمّرة، وازداد الظلام الناتج عن غبار واجهات الأبنية المتساقطة على طرفي الشوارع، فبات من الصعب التعرف عليها، وبدأت أسمع صوت الزجاج المهشّم، وأحسُّ بسخونة الإسفلت تحت أقدامي.

سلكنا طريقنا، في شوارع ملأى بقطع كبيرة من الزجاج المتناثر من الأبنية، التي فقدت نوافذها، فمزَّق الزجاج هياكل بعض السيارات، وكان يمكننا رؤية مساحة كبيرة من المرفأ، تنبعث منها النيران من أسفل الدخان البني المتصاعد نحو السماء، ولاحظت وجود برك صغيرة من الدماء على الأرصفة.

التقطت عينا أبو أيمن وجود شخص في سيارة مرسيدس سوداء مسحوقة، من جراء وقوع قطعة من بلكونة إسمنتية على سقفها، فاقترب منها، وتظاهر بأنه يحاول مساعدة هذا الشخص على الخروج من نافذة السيارة المهشمة، استغربت هذه الشهامة التي دبَّت فجأة لدى أبو أيمن، لكنه بعد عدة محاولات فاشلة، ترك جثته في السيارة خلف المقود، وعاد لنتابع سيرنا في طرقات يملؤها الزجاج، وعلى جوانبها السيارات المحترقة،

بالنهاية عدنا إلى المدخل الشمالي لمنطقة المرفأ، ومددت يدي لمصافحة أبو أيمن مودعاً، فهالني منظر ساعة الروليكس الذهبية الموجودة على معصمه، ولاحظ من نظراتي الفارغة، اندهاشي من وجودها معلقاً: «اللّه يرحمه.... لو ما أخذتها أنا، لأخذها ممرض الإسعاف»، فشعرت بالاشمئزاز من موقفه، وبرغبة حقيقية في التقيؤ، لكني تماسكت نفسي، وفكرت لأول مرة جدياً، بأنه عليَّ أن أقطع علاقتي مع أبو أيمن.

لم أستطع أن أنام في تلك الليلة، وأنا أفكر كيف وصلت بنا الأمور إلى هذا الحد، وبدأت أحسب مضار قطع علاقتي مع أبو أيمن، فهو يمدني بحبوب الكبتاجون، التي أجني من بيعها بالمفرق حوالي بضع مئات من الدولارات، إضافة إلى حصتي من بيع الدولار الأسود، جلست في منتصف الليل، حيث تختفي الضوضاء، ويخيم السكون المطلق على شقتي، فأشعلت سيجارة الحشيش، وأنا أشاهد المسلسلات التركية بمفردي على التلفزيون، من دون أن تعتريني أي رغبة للاجتماع مع أي شخص من معارفي، وفي هذه اللحظات، فقدت اهتمامي بالنقود، وحتى بناديا، وأصبحت كسولاً، ولم أعد راغباً في الذهاب إلى الساحة، لقد قررت أن أقطع علاقتي بأبو أيمن، على الرغم من أن ذلك قد يشعرني بعدم الراحة مادياً لفترة قصيرة، لكنني سأتدبر أمري، وسأكون سعيداً على المدى البعيد.

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، رنَّ الجوال، وكان أبو أيمن على الخط: «وينك يا زلمة.... اترك كل شيء وتعال فوراً، الساحة حميانة على الآخر» وصلت الساحة بعد ساعة، وكان المحتجون يغلون من الغضب، وقد حملوا مشانق رمزية، ولافتات تدعو الطبقة الحاكمة إلى الاستقالة، وخصوصاً بعد هذا الانفجار الذي حصل البارحة في بيروت، حاول البعض الوصول إلى مبنى البرلمان، فردَّت عليهم قوات الأمن بشراسة، مستخدمة الغاز المسيّل للدموع، والرصاص الحي، وقع عدد كبير من الجرحى والقتلى بين المتظاهرين، لكن المحتجين رشقوا الشرطة بالحجارة، إنها المسرحية نفسها التي تتكرر كل يوم، من دون أي فائدة، ولولا حاجتي إلى بيع حبوب الكبتاجون إلى الشباب الموجودين في الساحة، لتوقفت عن المجيء إليها، وقبل مغادرتي الساحة، أخبرني أبو أيمن بأن أنتظره في شقتي بالمساء، لأنه سيحضر مع آديلي وآليس لمناقشتي بمشروع مهم.

كعادته، جاء أبو أيمن وشلته متأخرين، في حوالي الساعة الحادية عشرة، والتفت أبو أيمن ضاحكاً: «إن آديلي سبب تأخرنا... كان عندها جلسة زار، في بيت معلمتها فاطمة البيروتية» وبعد دردشة قصيرة، توصلنا إلى أن أفضل طريقة لحل مشكلتنا في الوقت الحاضر، هو أن نبدأ بتصوير ورقة العملة

الأميركية فئة العشرين دولاراً؛ لأن قيمتها منخفضة نسبياً، فلا تخضع لكثير من التدقيق من المشترين، وبعدها سنقوم بطلائها بالورنيش الأسود، ونبحث عن زبائن لها، وأن أبو أيمن سيشتري في خلال هذين اليومين، نوعاً خاصاً من الورق، تشبه سماكته سماكة ورقة الدولار الحقيقية.

في هذه اللحظة، خطر لي أنه مادمنا سنخاطر بهذه العملية، فلماذا لا نحصل على ورقة بيضاء تشبه ورقة الدولار الحقيقية، ونقوم بتصوير المئة دولار عليها مباشرة، فتتضاعف أرباحنا خمس مرات، ونتعامل بها في السوق مباشرة، فأجابني أبو أيمن: «إن الموضوع أعقد من ذلك، فالورقة الأصلية للدولار مركَّبة من قطن وكتان، ولتزويرها بشكل صحيح، نحتاج إلى قوالب صور الدولار، وإلى مطبعة، لكي نتمكن من طبع بعض الحروف والأرقام عليها بشكل بارز، وإن الدخول في هذا الموضوع فوق إمكانياتنا المادية»، وتابع: «لديّ خبرة بهذا الموضوع، فهناك عدة مطابع في منطقته بالبقاع، تقوم بطباعة الدولار».

أصبح الحل الوحيد المتوافر لدينا حالياً، هو تصوير العشرين دولاراً، بعدها دخل أبو أيمن وآديلي إلى غرفة المرحومة زوجتي، وبقيت أنا وآليس في غرفتي، أمضيت طوال الليلة مستلقياً في فراشي، مبتعداً عنها بقدر الإمكان، غير راغبٍ في إقامة أي علاقة جنسية معها، يتقطعني الخوف

من أن عملية التصوير ستجري في بيتي، وإذا ساءت الأحوال، فسيتملص كل واحد منهم، من هذه العملية، بينما تبقى أداة الجريمة متمثلة بآلة التصوير في شقتي، ومن المستحيل حينها، إقناع القاضي بأنه ليس لي علاقة بموضوع التزوير، عندما بزغ الفجرغالبني النوم، بعد أن أقنعت نفسي، بأن على كل واحد منا، أن يواجه قدره بمفرده.

الفصل الخامس

مع تصاعد مخاوفي من عملية تزوير الدولارات، أدركت بأنه ليس كافياً، بأن تكون محتالاً ذكياً، بل يجب أن تنتمي إلى طبقة المؤسسات الحاكمة، لكي تستطيع أن تؤمن لنفسك الحماية، وعلى الرغم من شدة رعبي، مما قد يترتب على نتائج عملية التزوير، فلم يعد عندي الخيار للتراجع.

بعد يومين جاء أبو أيمن إلى شقتي وحده، ومعه صندوق صغير من الكرتون، وفيه الأوراق البيضاء التي تشبه أوراق الدولارات الأصلية، كانت في جيبه ثلاثون ورقة أصلية من فئة العشرين دولاراً، بدأنا بتصوير ورقات الدولارات الأصلية، وعندما انتهينا من تصويرها، وضع الثلاثين ورقة المزورة التي صورناها، بعضها فوق بعض، وحزمها بمطاطة، فأصبحت مجموعة بقيمة ستمئة

دولار جاهزة للدهان، واستمررنا في تصوير المجموعة الثانية، وعند انتهائنا منها، وضعناها بجانب أختها، وتابعنا التصوير لأكثر من ساعتين، حتى حصلنا بالنهاية على خمس عشرة رزمة مزورة، مجموع قيمتها تسعة آلاف دولار، استخدمنا هذه الطريقة، لكيلا يتكرر رقم الدولار نفسه في الرزمة الواحدة.

ماكدنا ننتهي من توضيب الخمس عشرة رزمة، حتى كان التوتر قد بلغ مداه، وبدأت أستعجل أبو أيمن ليغادر شقتي، لم أصدق أذني بأنه سيبقي الدولارات المزورة عندي مؤقتاً، حتى يذهب إلى صاحبه، ويشتري منه دهان الورنيش الأسود، فشعرت أن قلبي قد انزلق من مكانه، وتغيرت تعابير وجهي من هذه المفاجأة، التي كنت آخر ما أتوقعها.

من دون تفكير، اقترحت عليه أن يأخذ الدولارات المزورة معه، إلى صيدلية صديقه، ليتم دهانها هناك، فأجابني: «إن نقل الدولارات في هذه الظروف خطير جداً، فهناك عدة نقاط تفتيش أمنية للجيش، على طول الطريق المؤدي لقريته»، محاولةً لتلطيف جو النقاش، اقترح بأن نذهب معاً إلى بيت الدعارة، الذي زرناه بالمرة الماضية، لكي نتخلص من شعورنا بالتوتر، هذا الاقتراح هو أسوأ خيار كان يمكن أن يقدمه.

في المرة الماضية شعرت بالندم لنومي مع هذه المومس، حتى

إنني عندما عدت إلى شقتي، كنت أشم رائحة بشعة تنبعث من جسمي، تحممت في تلك الليلة أكثر من خمس مرات، بمياه ساخنة، واستخدمت صابون الديتول المعقم، لأغتسل من رهاب القذارة، وأتخلص من هذه الرائحة الغريبة، فالماء منذ آلاف السنين، يرمز إلى التطهّر جسمياً وروحياً.

نتيجة للانفجار الذي حدث في مرفأ بيروت، وتحت ضغط الشارع، استقالت الحكومة، لامتصاص غضب المتظاهرين، وتمَّ تشكيل وزارة ثانية من وجوه السياسيين نفسهم، المستهلكة والقديمة، فأصبح الوضع، يذكرنا بالعروض، التي كانت تقام على المسرح الإغريقي القديم، حيث يقسم نوع الأقنعة التي يرتديها الممثلون إلى نوعين، قناع لشخصية السياسي في تركيبة الحكومة، لتظهره بصورة المدافع عن مذهبه الديني، وقناع ثانٍ له في دور البطل الذي همّه إنقاذ البلد وحلُّ مشكلاتها الاقتصادية، كما يعبّر هذا القناع، بالوقت نفسه على طيبة هذا الشخص وإخلاصه لوطنه، وكان في الوزارة عدد لا بأس به من النساء؛ رغبة في الحصول على تأييد المرأة اللبنانية، ولإظهار الحكومة للعالم الخارجي، بأنها متحررة وعصرية، وتؤمن بالتمثيل المتوازن بين الرجل والمرأة.

لكن الأحوال الاقتصادية مازالت تتدهور من سيئ إلى أسوأ، ما أثر في مبيعاتنا لحبوب الكبتاجون، وأصبح الدولار الأسود المزور، هو أملنا الوحيد للخروج من هذه الأزمة، ولم يكن تصريف

تسعة الآلاف دولار التي صورناها بهذه السهولة، وبينما أنا جالس مع أبو أيمن ندردش كعادتنا في الساحة، أخبرني بأنه سيتوقف عن أخذ عمولة العشرة بالمئة التي يتقاضاها مني، مقابل تزويدي بحبوب الكبتاجون، قال لي: «إن النقود تأتي وتذهب، أما الصداقة فهي باقية حتى نموت»، فنظرت لأول مرة إليه بتمعّن، لأجد تحت هذه البنية القوية، والبشرة السمراء التي لوحتها الشمس، وأنفه المحدوب، وعينيه السوداوين القاسيتين، قلباً مفعماً بالحب والطيبة، فاختفت الكلمات في حنجرتي، فلاحظ ذلك، وضع أبو أيمن يده على كتفي: «يمكنك أن تعتبرني أخاك الصغير»، فتمتمت بصوت مخنوق: فعلاً هذا هو شعوري.

وراء كل هذه المشاعر السلبية التي نعانيها، فمازلت أعتقد بأن أمورنا ستتحسن حتماً، لأن الدولار في لبنان، مثل الخبز، وهو الوسيلة الوحيدة لتبادل السلع بين اللبنانيين، وكلما ازداد التدهور الاقتصادي، ستقل قيمة الليرة، حيث إن تكلفة طباعتها بالنهاية، لن تعادل قوتها الشرائية في السوق، وليس أمام اللبنانيين سوى التعامل بالدولار، ولو حتى كان مزوراً، واقتصر نشاطنا على بيع الدولارات المزيفة في الساحة، وكنا نبيع العشرين دولاراً، بسعر تشجيعي لقلة الطلب، بستة دولارات حقيقية.

تمكنت آديلي من تأمين زبون لنا، لشراء عشرة آلاف دولار أسود، وعندما اجتمع أبو أيمن معه، وافق على أن يدفع فيها ثلاثة آلاف

وخمسمئة دولار، حاول الزبون أن يكون مكان التسليم في شقته، لكن أبو أيمن رفض ذلك؛ خوفاً من أن يستفرد بنا فيها، واقترح أن تتم المبادلة في مطعم ماكدونالد للوجبات السريعة، وبدوره رفض المشتري ذلك بحجة أن المطعم مملوء بكاميرات المراقبة، وبكثير من الأشخاص الغرباء، وعرض علينا أن نلتقي في مطعم صغير يقدم المشاوي في منطقة برمانا، وكان لابد من الموافقة، لم يكن مجموع المبلغ المتبقي معنا أكثر من أربعة آلاف دولار، فقرر أبو أيمن أن نقوم من جديد بتصوير عشرة الآلاف بأوراق من فئة المئة دولار.

حضرت آديلي وآليس وأبو أيمن في حوالي الساعة التاسعة ليلاً إلى شقتي، وكان أبو أيمن قد حصل على عشر ورقات أصلية من فئة المئة دولار، فقمنا بتصويرها بالتتابع، لكيلا يتكرر الرقم نفسه في الرزمة الواحدة، كما صورناها في المرة الماضية، ثم قمنا بدهنها بالواكس الأسود بسرعة، وبعدها وضعناها على مجلى المطبخ، لكي تنشف في أثناء الليل، شعرنا براحة كبيرة لإنجازنا لهذا العمل، بهذه الفترة القصيرة، وكالعادة ذهب أبو أيمن مع آديلي للنوم في غرفة المرحومة زوجتي، بينما نمت أنا وآليس في غرفتي، في الصباح جمعنا الأوراق في عشر رزمات، وكان لون الشمع الأسود فاتحاً بعض الشيء؛ نتيجة لتسرعنا في عملية الدهان، ثم وضّبناها في ظرف أصفر كبير.

بالموعد، وصلت مع أبو أيمن في الساعة الواحدة ظهراً إلى

المطعم، وهو يحمل في يده الظرف الأصفر، دخلنا المطعم، وكانت حوالي أربع أو خمس طاولات مشغولة بالزبائن، ويبدو أن الوقت مازال مبكراً لتناول طعام الغداء، فبقيت أكثرية الطاولات فارغة، وجدنا شخصين يجلسان على طاولة منعزلة في زاوية المطعم، تتسع لأربعة أشخاص، كان أحدهما أسمر، عريض المنكبين، مربوع القامة، وعمره في الخمسينيات، ويجلس إلى جانبه شاب أشقر نحيف، قصير القامة، اقتربنا منهما، وعرفهما أبو أيمن على نفسه، فقاما ورحبا بنا، ودعوانا إلى الجلوس، فجلست أنا مواجه الرجل الضخم، وجلس أبو أيمن بمواجهة الرجل الأشقر، وما أن جلسنا حتى قام الرجل الصغير بطلب لحمة مشوية، ومازة لبنانية، وزجاجة من النبيذ الأحمر، أحضر النادل زجاجة النبيذ، وبعد أن فتحها، تذوقها الرجل الأشقر فأومأ برأسه بالموافقة، وسكب النادل النبيذ في الكؤوس الأربع الموجودة أمامنا.

طلب الشخص المربوع رؤية المبلغ، فأعطاه أبو أيمن الظرف الأصفر، وفيه عشرة الآلاف دولار، فأخرج من جيبه ظرفاً أبيض صغيراً، من المفروض أن يكون فيه ثلاثة آلاف وخمسمئة دولار، ووضعه على الطاولة أمام أبو أيمن، وبدأ الرجل يتفقد دولاراتنا بأطراف أصابعه، وهي في داخل الظرف الأصفر، بينما أخذ أبو أيمن في الوقت نفسه، يعدُّ الدولارات، وهي في داخل الظرف الأبيض، حتى لا يلفت انتباه الزبائن الموجودين بالمطعم، فجأة أخرج

الرجل الضخم من جيبه مسدساً أسود أميركياً، من طراز سميث ذا سبطانة قصيرة، وثبت معصمه على سطح الطاولة، ووجهه مباشرةً نحوي، وقال بصوت منخفض، حتى لا يسمعه الزبائن على الطاولات الأخرى: «يا ولاد الكلب الدولارات مزورة... جايين تسرقونا».

ما كان مني في هذه اللحظة إلا أن وضعت يدي تحت سطح الطاولة، ووقفت على قدمي دافعاً الطاولة بعنف إلى الأعلى في اتجاهه، فانقلبت الطاولة عليه، فانطلقت رصاصة طائشة من المسدس، خلال انقلاب الطاولة بالهواء، ولحسن حظنا، فالمسدس طاحونة وليس أوتوماتيكياً، ويحتاج إلى بعض الوقت لإطلاق الطلقة الثانية، فحامله مضطر لضغط الزناد مرة أخرى، لكي تنطلق الرصاصة الثانية، فاختل توازنه، ووقع من كرسيه على الأرض، وطار المسدس من يده، وبسرعة البرق، وقبل أن يستفيق الرجل من الصدمة، استغل أبو أيمن الفرصة، فوقف في مكانه، وأخذ الكرسي الذي كان جالساً عليه، وانهال فيه بالضرب على الرجل، فتفجرت الدماء من وجهه.

نظرت إلى الرجل الأشقر، فرأيته مازال متسمراً في مكانه، فمددت يدي، وجذبته من جاكيته باتجاهي، بدأ الزبائن الموجودون بالمطعم بالصراخ، بعد أن سمعوا صوت طلقة الرصاص، وساد الهرج من حولنا، واندفعوا نحو الباب الخارجي، أما الجراسين فاختبأ أكثرهم خلف البار الموجود على جانب المطعم، ولا أدري

كيف ملص الرجل الصغير مني، ومازلت ممسكاً بجاكيته في يدي اليمنى، أصبح الموقف محرجاً، وقد تحضر الشرطة بعد قليل، أو أن يقوم أحد الأشخاص الذين يعملون في المطعم، بالتدخل في أي لحظة، أخذت الظرف الأصفر الذي فيه الدولارات المزيفة، والذي وقع على الأرض، والتقطت المسدس، ولوحت به لإخافة الجراسين، واندفعنا خارج المطعم، والظرف الأبيض مازال مع أبو أيمن.

ركضنا في الشارع، وكان بعض زبائن المحل، يركضون في اتجاهات مختلفة، حتى ابتعدنا قليلاً، فاستوقفنا تاكسي، وطلبنا منه أن يقلنا إلى عنوان مكان قريب من بيتي، حتى لا يعرف سائق التاكسي عنواننا، فيما لو تطورت الأمور في المستقبل، ثم تابعنا المسافة المتبقية إلى شقتي، مشياً على الأقدام، وعندما وصلنا إلى الشقة.

امتدحني أبو أيمن: «فعلاً إنك رجل بمعنى الكلمة... أنقذتنا من هذه الورطة السوداء» فشعرت بالزهو، وأيقظ كلامه في نفسي رذيلة التكبر، فأجبته: «أنا ابن الحرب الأهلية، التي حرقت لبنان بسنة السبعينيات»، أخرجت المسدس السميث، وبدأت أشرح له ميزاته: «إني أفضِّل عليه مسدس بريتا الإيطالي، والذي كنت أحمله في تلك الأيام»، خطر لي أن أساله في هذه الأثناء، إذا كان يحتفظ بالظرف الأبيض، فأجابني مستغرباً: «إنك تعرف بأنه معي».

كنت أريد من سؤالي أن أتاكد فيما إذا كانت هذه المحادثة التي تجري بيننا حقيقية، وأن المعركة التي حدثت اليوم بالمطعم، لم تكن مجرد هلوسات لا إرادية، بدأت تسيطر على تفكيري تحت تأثير حبوب الكبتاجون وسيجارة الحشيش.

غادر أبو أيمن شقتي، ومعه الظرفان، لقد بدأ الموضوع يأخذ منحى آخر، استمددت نوعاً من الشجاعة لوجود المسدس إلى جانبي، وتذكرت أيام الحرب الأهلية في الكرنتينا، وكنت حينها شاباً في أول طلعتي، وكنا نقوم بأفعال جنونية نسميها بطولية، في تلك الأيام، كنت متوتراً لدرجة كبيرة، فلففت سيجارة حشيش، وغالباً ما تكون متعتي في لفّها، أكثر من تدخينها، وأدرت التلفزيون، وانتقلت إلى عالم آخر.

في مساء اليوم التالي، حضر أبو أيمن ومعه آديلي وآليس، وقد ملأ ذهنيهما بالعمل البطولي الذي قمت به في المطعم، لكن الشيء الذي لم أصدقه، أنَّه أحضر لي معه هدية مسدس بريتا ٩٢ من النوع القديم، يتسع مخزنه لعشر طلقات، ومعه مخزن إضافي فيه عشر طلقات أخرى، فقمت أنا بإهدائه المسدس السميث، الذي كان غنيمتنا البارحة في المطعم.

في الصباح، جلسنا حول طاولتي في غرفة الجلوس، نأكل الفطور في صمت تام، ونحن نفكر بماذا ستكون ردود أفعال الجماعة الذين تعاركنا معهم في المطعم؟ إن المبالغة بالخوف منهم بدأت تشوش

أفكارنا، أخرج أبو أيمن الظرف الأبيض، ليقسم مبلغ ثلاثة الآلاف والخمسمئة دولار على ثلاثتنا، لكنه قبل أن يقوم بقسمة المبلغ علينا، اقترح أن نقوم بشراء دولارات مزيفة، مطبوعة بشكل جيد، بهذا المبلغ من إحدى المطابع التي يعرفها في منطقة البقاع، ليتطور عملنا، وننتقل خطوة إلى الأمام، إذ إننا قد نواجه مشكلات كثيرة، من بيع الدولارات المصورة، في الأيام القادمة، لأنه من السهولة كشفها من الأشخاص العاديين، أما الدولارات المزورة بشكل محترف، فحروفها وتواقيعها نافرة، ويحتاج كشفها إلى جهاز خاص، أو إلى شخص خبير بالدولارات، فوافقت أنا مباشرة على هذه الفكرة، لأنني أود أن أتخلص من آلة التصوير الموجودة في شقتي، بأي شكل من الأشكال، فهي بنظري قنبلة موقوتة قابلة للانفجار في أي وقت.

تحت إلحاحي المستمر، بالتخلص من آلة التصوير الموجودة في بيتي، حضر بعد يومين أبو أيمن، وأخذها وباعها بمئة وعشرين دولاراً، كانت حصتي منها أربعين دولاراً، كنت سعيداً جداً بهذا المبلغ، فذهبت مع آليس إلى سوق البالة في منطقة الشياح، واشتريت لها فستاناً شتوياً كلاسيكياً، يصلح لكل وقت، كما اشتريت لها حذاءً مغلقاً من الأمام ذا كعب عالٍ، فمنظر أصابع قدميها السوداوين الرقيقتين، بأظفارهما الطويلة الملونة بالأحمر، وهي ظاهرة من الفتحة الأمامية للشحاطة البلاستيكية الخضراء، التي تلبسها تثير اشمئزازي، وتقتل رغبتي الجنسية تجاهها، وعدت معها إلى شقتي، وأمضينا الليلة فيها.

الفصل السادس

لم أكن أتوقع أن أجتمع ثانيةً، بالبنت الطويلة الممتلئة الجسم، ذات الوجه المطلي باللون الأبيض، لما وقع نظرها عليَّ بالساحة، وأنا جالس مع أبو أيمن، ركضت باتجاهي، وضمتني إليها، كأنني واحد من أعزّ معارفها، قالت لي: «إنها تبحث عني منذ عدة أيام، لتشكرني لإنقاذها من الشرطي الوحش، الذي كان يحاول أن يحشرها في سيارة الشحن العسكرية»، جلسنا نتسامر، أخذت أدقق في وجهها المطلي بالدهان، وأحاول أن أكتشف ما تحت هذا القناع، فبدا وجهها مستطيلاً، وجبهتها نافرة، وأنفها دقيق، وقسماتها حادة وواضحة، وشفتاها ممتلئتان وجذابتان، لا شك أنها أجرت عملية تجميل، وحقنتهما بالسيليكون، ولها شعر ناعم

كستنائي، وشعرت برغبة تشدُّني لكي أزيل هذا الطلاء، لأكتشف حقيقة جمال وجهها، وأعرفها على حقيقتها.

فهمت منها بأن اسمها سعاد، وأنها كانت طالبة في مدرسة الفرير التي درست فيها، والتحقت بالجامعة اللبنانية، ودرست الأدب الفرنسي، وهي تعمل الآن مدرسة للغة الفرنسية، وسألتني عن أحوالي، فأجبتها باختصار، فأموري لم تكن مشجعة لإطالة الحديث فيها، وأصرَّت على دعوتي إلى فنجان قهوة، لتعبر عن امتنانها لي، وتواعدنا على أن نلتقي الساعة السادسة من مساء الغد، في مقهى الستراند بشارع الحمراء.

وصلت قبلها، وجلست على طاولة على الرصيف بانتظارها، فشعرت بنسمات فصل الربيع الباردة، وهي تهبني الرغبة والإثارة لملاقاتها، عندما ظهرت، فوجئت بمظهرها، فبعد أن أزالت الدهان الأبيض من على وجهها، ظهرت تقاطيع وجهها الحاد بشكل جذّاب، وزاد من جماله، منظر شعرها الكستنائي يحيط بوجهها المستطيل ليعطيه طابعاً خاصاً، مرتدية فستاناً أسود، يجمع بين البساطة والأناقة، ولفت نظري قوامها الممتلئ المشوق، وعندما اقتربت مني، شممت رائحة عطر ساحر ينبعث منها، في هذه اللحظة شعرت بدقات قلبي تتسارع، مثل مراهق يتواعد مع فتاة لأول مرة في حياته، تمنيت لو أنني كنت قد لبست بدلتي السوداء الأنيقة، ماركة بوس، لأترك انطباعاً جيداً لديها.

فهمت من حديثها بأنها مطلقة تعيش مع ابنتيها، وبدأت تلحُّ عليَّ لكي أتكلم عن أحوالي، ولما كنت بطبيعتي أكره التمثيل، فكان لابدَّ لي من أن أكون أنا، فأخبرتها بأنني أرمل متقاعد، وأنه لكثرة التزاماتي، فأنا أبيع حبوب الكبتاجون بالمفرق، وأشارك بهذه المظاهرات، ضد الطبقة الحاكمة، التي تتحكم بمصيرنا، بعد أن ألقيت هذه الجملة، توقعت أن يخف حماسها للحديث معي، وأن يأخذ حديثنا مجرىً آخر، لكنني شعرت بأنها امرأة واعية، ولقد استطاعت أن تتفهم وضعي وتتسلل إلى أعماقي، وأصرَّت على أن تدفع الفاتورة، لأنها هي من دعتني إلى فنجان القهوة، وقبل المغادرة سألتها، أني لا أريد أن أراها مرة ثانية، وهي تضع الدهان الأبيض على وجهها، لتخفي جمالها، فأجابتني ضاحكة: «أمرك»، أدركت بلحظتها بأن هذه الكلمة تعني أشياء كثيرة بالنسبة لكلينا.

عندما جلست بالمساء على التلفزيون، وأنا أدخن سيجارة الحشيش، لم أستطع من التوقف عن التفكير فيها، ولكن وجود بنتين إلى جانبها، يعني مسؤولية كبيرة، غير قادر على تحملها، ولا أدري ماذا سيكون حقيقة موقفها، لو عرفت بأنني متورط في تزوير الدولارات، وأعاني من المشكلات الجدية، مع بعض الزبائن، لا أدري من أين خطرت لي فكرة الزواج بسعاد، فمن عادتي أنني عندما ألتقي ببنت، أنشغل بالتخيلات الجنسية التي

تراودني حولها، والتي يكون من الصعب السيطرة عليها، بغض النظر عن أنني مازلت مغرماً بابنة عمتي ناديا، وبلا شعور، قارنتهما مع بعضهما بعضاً، بعد دقيقتين أو ثلاث، بردت الأفكار في رأسي، ثم بدأت تتلاشى، وغرقت في النوم.

في طريقي إلى الساحة، كان كل تفكيري منصباً على سعاد، وأنا أتخيلها وهي واقفة بانتظاري، بالنهاية طردت هذه الأفكار من رأسي؛ خوفاً من أن تتحول إلى واقع حقيقي وملموس، وبدأت أفكر بأبو أيمن وموضوع الدولارات المطبوعة، وعندما جلست مع أبو أيمن، أخبرني بأنه اشترى بالمبلغ الذي معنا دولارات مطبوعة، ودفع خمسة وثلاثين دولاراً مقابل كل مئة دولار، فسألته عن نوعيتها، فأجابني بأنها مقبولة، في هذه اللحظة شاهدنا سعاد تتقدم نحونا، فغيرنا المناقشة، باتجاه الحكومة الفاشلة التي تدير البلد.

أخذت عيوني تتفحص وجهها الطبيعي من دون مكياج، وكلما تمعَّنت فيه، ازددت تعلقاً بجماله ونضارته، وبزلة من لساني، سألتها عن عمرها، فأجابتني بابتسامة غامضة، تخفي دهاء كل النساء، ستٌّ وأربعون سنة، وغالباً ما تكون زلات اللسان، هي أقرب شيء إلى مشاعرنا الحقيقية، خطر لي فوراً أنها في سن تصلح بها أن تكون زوجتي، فقررت عدم الاسترسال في هذه الوساوس.

أخبرتني بأنها تضع الدهان الأبيض على وجهها، لكيلا يتعرف عليها أحد، فلو أن ناظرة المدرسة عرفت بأنها تشارك في المظاهرات، لتمَّ فصلها مباشرةً من وظيفتها، وأن حياتها الآن أصبحت سلسلة من التضحيات من أجل بناتها، بما أنني لا أؤمن بوجود الصداقة البريئة بين الرجل والمرأة، فمشاعري الجنسية نحوها، لا تقاس فقط برغبتي في الحصول عليها، بل تقع ضمن طيف واسع من مشاعر الشهوة والشفقة والاحترام، ونصحتها بأن تتوقف عن المجيء إلى الساحة، من أجل سلامتها، فوافقت على ذلك، واتفقنا على أن نلتقي غداً مساءً في مقهى السترااند.

لا بدَّ لي من التركيز لمساعدة أبو أيمن في مشروعنا الجديد، وبالفعل جهزت آديلي موعداً مع أحد مشتري الدولار الأسود، كان أبو أيمن قد قرر أن نتخلص من الأربعة عشر ألف دولار الباقية معنا بأي شكل، وعندما اجتمعنا مع الزبون، كان يفكر مبدئياً، بشراء خمسة آلاف دولار، لكن أبو أيمن عرض عليه أن يبيعه الأربعة عشر ألف دولار بسعر لا يمكنه رفضه، لقد طلب عشرين دولاراً لكل مئة دولار، أنا لم أصدق ما أسمعه، وأنا قاعد في هذا البازار، ولم تكن عندي الجرأة لأتدخل، وأقطع إتمام هذه الصفقة، بالنهاية أخذ أبو أيمن ألفين وثمانمئة دولار حقيقية، وأغلقنا الموضوع.

أقمنا في هذه الليلة احتفالاً صغيراً في شقتي، بنجاح هذه

الصفقة، بيتزا وقنينة من النبيذ الأحمر، وسهرنا حتى منتصف الليل، ثمَّ دخل أبو أيمن وآديلي إلى غرفة المرحومة زوجتي، ونمت مع آليس في غرفتي، كانت ممددة إلى جانبي، بلا حراك، ولعلها لاحظت أنني فقدت الرغبة الجنسية تجاهها، وسيطرت لوهلة على فكرة أنني أصبحت عاجزاً جنسياً، ينتابني الخوف كلّما فكرت بأن أقترب منها، وبدأت أقارن بين آليس النائمة إلى جواري وبين سعاد، ما أعطاني الشعور بالذنب، إضافة إلى التوتر والخوف من النتائج المجهولة، التي قد تترتب على مشكلة المطعم، ربَّما كان ضعفي الجنسي، أحد الأعراض لهذه الحزمة من المشكلات التي أمرُّ بها.

بدأ ضوء الظلام في الشارع بالتلاشي، لمَّا نزلنا الدرج نحن الأربعة، لنركب سيارة الأجرة التي كانت في انتظارنا أمام مدخل البناء، دخلت آديلي وآليس إلى المقعد الخلفي، وأحنيت رأسي لأتمكن من الدخول والجلوس إلى جانبهما، وأسرع أبو أيمن مستديراً حول مقدمة السيارة، ليفتح باب التاكسي، ودخل ليركب بجانب السائق، عندما لف رأسه، وهو يضع قدمه في داخل السيارة، لاحظ رجلين ظهرا فجأة من حول زاوية البناء، ارتديا معطفين طويلين غامقين، ووضعا على رأسيهما الشماغ الفلسطيني ذا الأرضية البيضاء والخطوط السوداء، ليصعب على الشهود التعرف عليهما، لكنهما لم يتوقعا ردة فعل أبو أيمن

الآنية، فدفع بجسمه في عجلة إلى داخل السيارة، وصرخ بالسائق بصوتٍ عالٍ، لكي ينطلق بسرعة.

في تلك اللحظة سحب الرجلان مسدسيهما، وأطلقا النار، أصابت الطلقة الأولى أبو أيمن في كتفه، أحسَّ بصدمتها العنيفة فصرخ، وطلب من سائق الأجرة ألا يتوقف، بل ليتابع سيره، أما الرصاصة الثانية فقد أصابته في ساقه، لم ينهَر السائق، ومضت السيارة في طريقها بسرعة مبتعدة عن الرجلين، وأطلق أحد الرجلين طلقتين أصابتا صندوق السيارة من الخلف، بدأ أبو أيمن ينزف، وتشكَّلت بركة من الدم على كرسيه، وفوق أرضية السيارة، تدخلت أنا وطلبت من السائق، أن يأخذنا فوراً إلى مستشفى الجامعة الأميركية، فتردد السائق: «إن الاستعلامات عند مدخل المستشفى، لن تسمح له بالدخول، قبل أن يقوم الشرطي الموجود عند المدخل بالتحقيق معه، لمعرفة سبب إصابته، وإنهم سيطلبون شهادتي عن الحادثة، وسأتعطل عن العمل، وينخرب بيتي».

على الطريقة اللبنانية، أخرجت من جيبي أربعمئة دولار، وأعطيتها له: «هذه ثمن أتعابك»، إنه عرض لا يمكنه رفضه، وكان أبو أيمن يئن من الألم، أوقفنا السيارة، ونزلت منها آديلي وآليس، ثم تابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى باب قسم الطوارئ، في مستشفى الجامعة، أحضروا النقالة لحمله إلى داخل المستشفى، وجاء الشرطي لكتابة محضر بالحادثة، فمددت يدي وصافحته،

وكان في داخلها ثلاثمئة دولار، وعندما انتهى من مصافحتي، شعر بأن هناك عدة أوراق من الدولارات في يده، فظهرت الابتسامة على وجهه: «لا يهمك... والحمد لله على سلامته»، وطلب من الممرضين اللذين كانا يدفعان النقالة، أن ينقلاه بسرعة إلى قسم الإسعاف، ثم التفت: «لا تاكل هم، أنا سأكتب بالمحضر بأنها حادثة، تم فيها إطلاق النار من مجهول».

كانت حالة أبو أيمن مستقرة، وطمأنني الدكتور، بأنه لا داعي للخوف، فإصابته ليست خطيرة، خضع أبو أيمن لجراحة بسيطة، تمَّ فيها استخراج الرصاصة من كتفه، كما تمت معالجة الخدش في ساقه، بقدوم المساء، أصبح من المستحيل أن أترك أبو أيمن وحده، وأذهب إلى موعدي مع سعاد في مقهى ستراند، فاتصلت بجوالها، وأخبرتها بأنني بجوار أبو أيمن، الذي أصيب بطلق ناري في مستشفى الجامعة الأميركية.

بعد أقل من ساعة، كانت سعاد جالسة إلى جانبي في ردهة الانتظار في المستشفى، وأخبرتني بأن قلبها قد توقف، عندما سمعت بأنني في المستشفى، وبينما نحن جالسان، جاء الطبيب المناوب، فشرحت له أنني أودُّ أن أبقى هذه الليلة في المستشفى بجوار أبو أيمن، فأجاب: «إن قوانين المستشفى تسمح فقط لأقرباء المريض بأن يبقوا معه بالمستشفى خلال الليل، وإن حالة أبو أيمن مستقرة، ولا داعي للقلق»، وعندما جاءت الساعة

التاسعة مساءً، كان قد حان الوقت الذي فيه على جميع الزوار مغادرة المستشفى، فودعت أبو أيمن، على أن ألقاه في صباح الغد.

نزلنا إلى باب المستشفى، وركبنا تاكسي، وأعطته سعاد عنوان منزلها ليوصلها إليه، وبعدها سيقوم بتوصيلي إلى عنواني، لمَّا وصلنا إلى البناء الذي تقيم فيه، وقبل نزولها من السيارة قالت لي: «شكلك تعبان كتير... شو رأيك تنزل وتشرب فنجان قهوة»؟

أنا فوجئت من هذه الدعوة، فالساعة حوالي العاشرة ليلاً، فماذا سيقول جيرانها لو شاهدوها تدخل شقتها مع شخص غريب؟! ثم ماذا سيكون موقف ابنتيها عندما أدخل البيت؟ فشعرت بإحراج رهيب، فأجبتها: «لا مو وقتها...» فأخبرتني بأنها قلقة جداً عليَّ، لقد أدركت بذكائها، أن هذه العملية من فعل العصابات، وأنها ليست حادثة عرضية، كما أخبرتها على الجوال، وحذرتني وهي تودعني: «انتبه على حالك... وعلى طول اتصل معي بجوالي، لكي أبقى مطمئنة عليك».

بعد ثلاثة أيام خرج أبو أيمن من المستشفى، ذهب ليرتاح في بيته مع عائلته، لقد كلَّفنا هذا الهجوم، أكثر من خمسة آلاف دولار، إنها أصبحت حرباً مفتوحةً، مع هؤلاء الشخصين اللذين اختلفنا معهما في المطعم، أول عمل قمت به، أنني اشتريت مسدس بريتا حديثاً نسبياً، موديل ٩٣، مع ثلاثة مخازن بقدرة

استيعاب عشرين طلقة في كل مخزن، لقد أصبح لدي مسدسان من نوع بريتا، وذخيرة كافية لبدء حرب في الشارع، تذكَّرت أيام الحرب الأهلية في لبنان، في منتصف السبعينيات، لمَّا كنّا نطلق النار على كل شيء يتحرك في الطرف الآخر، المواجه لشريط مواقعنا في وسط بيروت.

استعلمت عن اسم الشخصين اللذين قابلناهما في المطعم، وعرفت مكان سكن أحدهما، فهو يقطن في حارة الغندق، في منطقة بيروت القديمة، لبست معطفي الأسود، وضعت طاقيتي الصوف الرمادية على رأسي، وأخذت حالي، وبدأت أتفقد المنطقة، درت مرتين حول البناء الذي يقطنه هذا الشخص، آملاً في أن يخرج بالمصادفة من بيته، لأصفي حسابي معه، لقد تسكعت أكثر من ساعتين في هذا الجوار، حتى أوقفني أحد الأشخاص الذين يركبون الموتوسيكلات المنتشرة بكثرة في الحي، ويبدو من منظره، أنه من إحدى المنظمات المكلّفة بحماية المنطقة والتدقيق في وجوه الغرباء الداخلين إليها، وسألني ماذا تريد في حارتنا؟ فأجبته: «إني أبحث عن أبو مروان، وهناك ثأر قديم بيننا، وصار الوقت لأخذه»، فلم ينبس بأي كلمة، فلقد لاحظ الشرر المنبعث من عينيَّ والغضب البادي على سحنتي، كانت أعصابي مشدودة لدرجة، أنني كنت على استعداد فيها، لأن أطلق عليه النار، فيما لو بدرت منه أي بادرة، تبعث الشك في نفسي.

عندما زرت أبو أيمن بعد يومين في بيته، أخبرته بأن الأمور لن تكون بخير، حتى ندفن هذين الشخصين، حاول أن يهدئ من روعي، وذكَّرني بأنني صاحب عيلة، وعندي بنت وحيدة مازلت مسؤولاً عنها، وأنه بدوره عنده عائلة مسؤول عنها أيضاً، فقلت له: «كل هذا العلاك لن يفيدنا شيئاً، وإنه بعد هذه الحادثة إما نحن وإما هم، وإن الحرب المفتوحة بيننا قد بدأت».

شعرت بقيمتي، وأنا أحكي هذا الكلام، وترحمت على أيام الحرب الأهلية، عندما كنت مسؤولاً عن فصيلة، كنت أحيانا أشعر بأنني الله، لأنني أنا كنت من يقرر من سيعيش ومن سيموت من الأشخاص المشبوهين، الذين نوقفهم على الحاجز في وسط بيروت.

الإشاعات السيئة يتم تناقلها بسرعة، ولقد عرف الشخصان ومن ورائهما، بأن المعركة قد أصبحت مفتوحة على كل الاحتمالات، فأرسلوا لنا وسيطاً، وهو صاحب المطبعة في البقاع، الذي يشتري منه أبو أيمن الدولارات المطبوعة، للتوسط لحل هذا الإشكال، لقد مارس أبو أيمن كل أنواع الضغوط، حتى وافقت على الاجتماع معهم، بعد أن قعدنا، اقترح صاحب المطبعة أن يسامحونا بقيمة ثلاثة الآلاف وخمسمئة دولار، التي أخذناها منهم بالمطعم، وأن يتكفلوا بدفع جميع مصاريف المستشفى، على أساس أن نبدأ صفحة جديدة بيننا، فقام الرجل الأشقر الصغير،

واندفع وقبّل جبين أبو أيمن، فعانقه أبو أيمن، فلم يكن أمامي حينها إلا الموافقة على إنهاء هذا الخصام.

كما يقول المثل العامي: «لا تاخذ صاحب إلا بعد قتلة»، بعدها بدأنا نتعاون مع أعداء الأمس، عرّفونا على شخص في البقاع، عنده معمل لصنع حبات الكبتاجون، اكتشفنا أن تكلفة حبة الكبتاجون أقل من عشرة سنتات، ويتم بيعها في الشارع بأكثر من دولار، تأكدت من أنه لا يمكن عمل النقود من بيع حبات الكبتاجون في الشوارع من الصباح حتى المساء، إن النقود الحقيقية تأتي ببيع مئات الآلاف من حبوب الكبتاجون في صفقة واحدة، فتحت هذه الحادثة أعيننا بشكل واضح وجلي على شيء كان يخفى علينا، ألا وهو: أين توجد النقود الحقيقية؟

الفصل السابع

بفضل هذا المشروع الجديد، انتهت علاقتنا بساحة رياض الصلح، وبجماعة المتمردين فيها، بدأنا صفحة جديدة مع عائلة متنفذة في منطقة البقاع، هناك سبع عائلات، يسيطرون على تجارة المخدرات في البقاع، وترتبط كل عائلة بالعشيرة الأم، التي انحدرت منها، وتتميز هذه العائلات بالشرف والوحشية بالوقت نفسه، ما يجعل وضع هذه العائلات نسخة مصغرة عن عصابات المافيا التي تتحكم في شوارع شيكاغو.

دُعينا إلى اجتماع، في بيت أحد وجهاء عائلة المراميد في بلدة بريتال بمنطقة البقاع، عقد الاجتماع في غرفة كبيرة في هذا البيت الجميل المبني من الحجر الأبيض، والمؤلف من طابقين مع ساحة أمامية كبيرة، ويحيط بالفيلا من كل الجوانب أشجار

التفاح، وبعض شتلات الورود الحمراء المرتفعة، وزهور صفراء صغيرة مبعثرة في كل مكان، وكأنها واحة شُيّدت ليفرَّ إليها الهاربون من ضوضاء المدينة.

كنت أنا وأبو أيمن أول الواصلين، واستقبلنا صاحب الدار بالعناق والتقبيل، ورحب بحضورنا، بعد قليل وصل ابن عمه وأخوه في سيارة واحدة، بدأ اللقاء بالتحيات والأحاديث العامة عن الحكومة، والمظاهرات التي ستخرّب لبنان، وتقوده إلى الانهيار، ضيفونا كأساً صغيرة من المتة الساخنة، يعلوها مصاصة واحدة، بدأنا نتناقلها لنشرب منها نحن الخمسة، إنها طقوس شرب المتة المتبعة هنا، فهي ترمز إلى وحدة مصير الأشخاص الذين يشربون من مصاصة كأس المتة نفسها.

مضت نصف ساعة قبل أن يتكلم صاحب البيت: «إنه سمع كثيراً عني، من بعض الأشخاص الذين يثق بهم، عن شجاعتي في معارك الحرب الأهلية، وإنني شخص مستقيم، لا أخدع أحداً، وهذا ما دفعهم للتعامل معنا»، ثم أشاد بأبو أيمن وبخبرته في التعامل بتجارة الكبتاجون.

دخل في الموضوع مباشرة: «إن هناك حوالي مليون حبة كبتاجون، سيتم شحنها إلى مصر، وإنني أنا شخصياً سأرافقها وحدي على ظهر السفينة، لأنه لا يوجد توقيفات في سجلي

العدلي، تشير إلى حيازتي على المخدرات أو تعاطيها، وهذه نقطة فارقة في هذه المهمة الكبيرة، بينما يوجد بعض السوابق في سجل أبو أيمن العدلي»، وأضاف: «إنه ليس بحاجة إلى ضمانات مني، فثقته بي كبيرة»، فهمت من كلمة ضمانات بأنه يشير بها من بعيد، إلى ابنتي وعائلتها، فتغاضيت عن هذه الملاحظة اللئيمة والخطيرة.

بعد أن انتهى من حديثه، لم أعد أعرف ما أقول، وبدا الذهول على أبو أيمن، فتابع حديثه: «معك أربعٌ وعشرون ساعة لتقرر فيما إذا مازلت راغباً في التعامل معنا، وإتمام هذه العملية، أو تود الانسحاب، لكننا سنبقى أهلاً وحبايب، مهما كان قرارك»، التفكير بالمبلغ الذي قد يمكن أن أحصل عليه من هذه الصفقة الهائلة، إضافة إلى مقولته بأن عنده ثقة كبيرة في شخصي، أثار غريزة الطمع، وحب الظهور المتأصلة في أعماقي، فأحنيت له رأسي باحترام، وأجبته بالموافقة، واتفقنا على أن يتصلوا معي على جوالي، بعد عدة أيام، لتحديد موعد آخر، ليزودوني فيه بالتفاصيل اللازمة.

وصلت إلى شقتي مع أبو أيمن بعد ساعتين قضيناها بالطريق من بريتال، مشوش التفكير وخائفاً من أن أفقد السيطرة على نفسي، وقررت أن أنسحب من هذه العملية، لأن أغلبية عمليات التهريب التي تكتشفها الجمارك، يعود الفضل فيها إلى إخبارية تصلهم من

أحد الوشاة المشاركين فيها، تصورت ماذا سيحدث لو أمسكوني في مصر، مع هذه الكمية الرهيبة من المخدرات، ربما قد يرسلوني إلى السجن لعشر أو خمس عشرة سنة، وفكرت بابنتي وبسعاد.

قطع حبل أفكاري السوداء أبو أيمن، وهو يحدثني: «هل تعرف لماذا لم تؤذِني الطلقتان»؟ فأجبته: «كلا»، فأخرج من تحت قميصه، قطعة جلدية سميكة سوداء مربعة منوهاً: «هذا الحجاب يمكنه أن يفعل المعجزات، لأن آديلي عملته لي بيديها، وكنت أضعه حول رقبتي، خلال عملية إطلاق النار، يمكننا أن نستدعيها غداً بالليل، لتعمل لك حجاباً».

بما أنني كنت مذعوراً بهذه اللحظات، وكنت بحاجة للتعلق بحبال الهواء، فوافقت على أن تحضر آديلي وحدها إلى شقتي، أما آليس فلا أريد أن أراها بعد اليوم، لأن علاقتي بسعاد أصبحت جدية، وأنا أفكر بالزواج منها، وإنني سأتحمل تبعات هذه المخاطرة كلها، من أجل تأمين مبلغ محترم يساعدنا على بدء حياتنا الزوجية، لقد أجبرني الخوف الذي يعتريني من المجهول، على أن أقبل نصيحة أبو أيمن.

مازلت في مزاج الأمس نفسه، عندما وصل أبو أيمن وآديلي كعادتها تحمل في يدها كيساً بلاستيكياً أسود كبيراً، وطلبت منا أن نحمل الطاولة الصغيرة الموجودة في غرفة الجلوس إلى

المطبخ، حاولت في البداية أن أقنعها، بأن حجم الطاولة كبير بالنسبة لمساحة المطبخ، وهناك صعوبة لوضعها فيه، لكن أبو أيمن سارع وطلب مني أن أساعده لنقلها للمطبخ، إن سيطرة آديلي على أبو أيمن، أصبحت واضحة ولا تحتاج إلى نقاش.

أخرجت من كيسها علبة كرتونية بيضاء، كالتي تستعمل في المتاجر لوضع الأحذية الجديدة فيها، وفتحتها ببطء، ومدَّت أصابعها إليها، ولما أخرجتها، كانت تمسك بجردٍ أسودَ كبيرٍ، فشعرت بالاشمئزاز من منظره، لكنها نبهتني إلى أنه أرنب أسود مسالم ولطيف، طلبت مني أن أتقدم وأمسكه بيدي، بعد أن وضعته في مجلى المطبخ، اندفع الدم إلى رأسي وقلت لها بحزم: «لن أقوم بذبحه»، وبينما هو بين يدي، شاهدت سكيناً صغيرة في يدها، وبجرأة حزَّت رأسه باحتراف، بدأ المسكين ينتفض في يدي لفترة قصيرة، ثم توقف عن الحراك، تلطخت يداي بدماء الضحية، فسحبتني آديلي من قميصي، وأجلستني على الكرسي أمام الطاولة، ومازالت الدماء على يدي.

أخرجت من كيسها عوداً من البخور، ومعه دفٌّ صغيرٌ، أشعلت عود البخور، ووضعته على منفضة السجائر أمامي، ثم أخرجت خيطاً أسود، وعقدته، ونفثت فيه، وبللته بريقها، وهي تقرأ التعاويذ بالأبهرية، وأعادت العملية ست مرات، حتى أصبح في الخيط سبع عقد، وبعدها أخذت الخيط، ولفَّت به قطعة الجلد

المضرجة بدم الأرنب على الطاولة، وبدأت تنقر بأصابعها على الدف بإيقاعات متسارعة، تسابقها نغمات صوتها الخشن باللغة الأبهرية، لغة أهل بلدها، تسأل ملك الجن أن يحضر ليتقبل هذه الهدية مني، ما أثار انفعالات الخوف الكامنة في نفسي، لتنطلق نحو الأعلى، تحت صوت دقات الدف السريعة، وأزالت لدهشتي كل أنواع التشنج العضلي، الذي ظلَّ يلازمني بالفترة الأخيرة.

في صغرنا، تعلمنا أن نؤمن بوجود الجان معنا في عالمنا، وبقدراتهم الخارقة، وكان أهلنا يسمونهم الأسياد، وتحت تأثير رائحة هذا البخور، تلبستني حالة من المسّ، تجاوزت بها الحد الفاصل بين عالمنا وعالمهم، كما حدث لي منذ عدة أشهر، حينما تجاوزت الخط الفاصل بين عالمنا وعالم الأموات، لقد كانت أمي دائماً تنبهني إلى أن هناك شيئين قد لا يتوقعهما الإنسان في حياته، الإصابة بالعين، وتعويذات السحر الأسود.

في ختام الجلسة، أخذت آديلي قطعة الجلد الملطخة بالدم، وخاطتها إلى قطعة جلد سوداء، كانت قد جهّزتها سابقاً، وبدأت تقرأ بعض التعاويذ وتنفث فيها، وتلقي الرقية بلغتها الأبهرية عليها، وعندما انتهت من عملية السحر، أعطتني الحجاب، ونبهتني إلى أنه قد أصبح جاهزاً لحمايتي من كل شرور العالم، أنا لا أؤمن بالمصادفة، وكلما بدت الأمور عشوائية، ازداد يقيني بأن هناك مخططاً وراءها.

خلال انتظاري للمكالمة الهاتفية، أصبت بالملل، وأحسست بأن الوقت يمر ببطء، فخطر لي أن أتصل بسعاد، فقد سبق أن دعتني للعشاء في بيتها عدة مرات، لكنني كنت دائماً أتهرب منها، لكيلا تأخذ علاقتنا طابعاً شخصياً، أثر اختلاطي بعائلتها، اتصلت بجوالها، ودعوتها للخروج للعشاء في أحد المطاعم، كان ردها: «لماذا كبّ المصاري؟! لماذا لا تحضر إلى العشاء في البيت عندي، وستكتشف بنفسك كم أنا شاطرة في المطبخ»؟ لم يكن أمامي من بدٍّ إلا الموافقة.

راودتني عدة أفكار حول الهدية التي سأحملها معي للعشاء، واستقر تفكيري على زجاجة كبيرة من بيرفيوم عطر مدام شانيل، إنها بخبرتها تعرف أنها هدية غالية، فتتأكد من مقدار اهتمامي بها، دخلت المنزل فعرفتني على ابنتيها، وجلسنا في غرفة المعيشة، كان البيت صغيراً، وخمَّنت أنه عبارة عن أربع غرف، غادرت الكبيرة بعد فترة مكانها، بينما ظلَّت الصغيرة طوال الوقت تتأملني من بعيد، لفت نظري ملامح وجهها الدقيقة الحادة التي تذكرني بملامح أمها، ثمَّ طلبت منها أمها، أن تذهب إلى غرفتها للدراسة، فنهضت ومدَّت يدها لتصافحني، ولعلها كانت خائفة مني، فحاولت أن تبني نوعاً من صداقة، تشعرها بالاطمئنان مع هذا الرجل الغريب، الذي تشاهده في بيت أمها لأول مرة.

جلسنا على طاولة العشاء، كان العشاء بسيطاً، فهناك شوربة بالعدس، وطبق من الرز، وآخر من شرائح اللحم، وصحن من السلطة، وزجاجة من نبيذ أحمر لبناني، فكرت بالمبلغ الذي صرفته سعاد على إعداد هذه الطاولة، في الوقت الذي تعاني فيه أكثر العائلات اللبنانية مشاكل مادية كبيرة، وترزح تحت أعباء الديون، لما انتهيت من شرب نصف زجاجة النبيذ، اكتسبت بعض الجسارة، مازحتها: «ترددت في شراء هديتك، فكان أمامي إما شراء زجاجة بيرفيوم، أو شراء خاتم ألماس سوليتير»، فردت مازحة: «ما صار شيء، الهدية مازالت بعلبتها، رجعها واشترِ خاتم السوليتير».

ما كادت تنتهي من جملتها، حتى أدركت بأنها تشجعني لطلب يدها بطريقة مباشرة، فاحمرَّ وجهها لشعورها بالإحراج والخجل، ولأخفف من وقع كلامها أجبتها: «في المرة القادمة إن شاء الله، بعد عودتي من اليونان، التي سأسافر إليها برحلة عمل في الأسبوع القادم».

لا أعرف إلى أيّ حدٍّ، تدرك سعاد تورطي في الأعمال غير الشرعية، ولكنها تتظاهر بأنها تصدقني عندما أتكلم عن تجارتي في العملة الإلكترونية، والأرباح الكبيرة التي أجنيها من بيع وشراء البيتكوين، لا شك أنها امرأة عاقلة، ولها تجربة واعية في الحياة، اكتسبتها من عملها، ومن طلاقها من زوجها، فهي قوية أمام الآخرين، ضعيفة أمامي، تدفعني بإصرار لكي أتزوجها.

قررت أنه بعد زواجنا، فمن الأفضل أن تنتقل مع ابنتيها لنعيش في شقتي الصغيرة، وسأعيد دهان البيت باللون الأبيض العاجي، ليجعله أكثر إشراقاً، وسأغير خزائن المطبخ، وسأشتري للبنتين غرفة نوم جديدة، وكذلك لنا أيضاً، صحيح أن هذه العملية قد تكلفني أكثر من عشرة آلاف دولار، لكننا سنوفر المئتين والخمسين دولاراً، التي تدفعها سعاد شهرياً أجرة لشقتها، لم أكن مرتاحاً كثيراً لفكرة الزواج، لأنني سأفتقد حريتي وحياتي الشخصية، التي استمتعت بها خلال السنوات الست الأخيرة، لكنني في الفترة الماضية، بدأت أشتكي حالة الملل والرتابة، التي أصبحت سمة أساسية في حياتي، ولعل هذا هو ما دفعني، إلى النزول إلى ساحة رياض الصلح، والانضمام إلى جموع الغاضبين فيها، إضافة إلى حقدي الدفين على طبقة الأغنياء.

اتصل بي المعلم بعد ثلاثة أيام، وطلب مني أن أحضر وحدي في صباح اليوم التالي إلى بيته في بريتال، بقيت مستيقظاً طوال الليل، أفكر بالنهايات الضبابية التي تنتظرني لو فشلت في هذه العملية، وأنا مسكون بالأمل والخوف من المجهول.

في الصباح أخذت تاكسي وانطلقت إلى بيته، استقبلني كعادته بحرارة، وفي أثناء الحديث ذكر لي: «إنه في مصلحتنا هناك مثل، كلما عرف الواحد منا أقل، ازدادت فرصته ليعيش أكثر، هذه مهنة نحن اخترناها، وعلينا أن نتحمّل نتائجها»، وضع على

الطاولة صورة لشخص عادي، ربما قد نصادف أمثاله باليوم مئات المرات، وطلب مني: «دقّق جيداً في صورة هذا الشخص، وخذ الصورة معك، وتمعَّن فيها خلال اليومين القادمين، لكن قبل أن تركب باخرة الشحن، التي ستأخذك من بيروت إلى ميناء الإسكندرية، عليك أن تحرقها لتتخلص منها، يجب أن تعتاد على حرق جميع الأشياء التي تريد أن تتخلص منها، فشعرت بارتياح نفسي عميق، لكلام هذا الرجل، فلا شك أن عنده خبرة طويلة في الحياة، وتابع: «هذا الشخص الذي في الصورة، لا يعرفك، ومن المفروض أن تتظاهر بأنك لا تعرفه أيضاً، وستكون مهمتك أن تراقبه كظله على سطح سفينة الشحن، من دون أن يشعر بذلك، وعليك أن تدوّن كل صغيرة وكبيرة يقوم بها على السفينة، فهذا الرجل يعمل موظفاً لتخليص البضائع في الشركة، التي قامت بشحن منتجاتنا إلى الإسكندرية، ووظيفته أن يساعدنا في تخليص بضاعتنا عند إنزالها في الميناء، حين وصولك إلى ميناء الإسكندرية، وبعد انتهائك من معاملة جواز سفرك، ستجد شخصاً في الخارج بانتظارك اسمه أبو مروان، ولقد حجز لك بالفندق، إن وظيفتك في تلك اللحظة، أن تعتبر أبو مروان هو الله، وتنفذ جميع الأوامر التي يعطيك إياها حرفياً بلا مناقشة، إن شاء الله، إذا جرت الأمور كما هو مخطط لها، فلن تواجه أي مشكلة».

أخرج من حقيبة يد رجالية موضوعة على الطاولة، تذكرة سفر في سفينة الشحن، وبعدها سحب من جيبه رزمةً من الأوراق ذات المئة دولار، ودسَّها بخجل في يدي، لكي تكون كريماً يجب أن تعطي من مالك الخاص، وليس من مال الشركة، هناك أشخاص يستحقون الاحترام، لأنهم يحدثونك بأدب ويحترمونك، على الرغم من أنك أقل شأناً منهم، شعرت بالإعجاب الشديد لهذا الرجل، ولا أدري كيف، وبحركة لا شعورية، أخذت يده اليمنى وقبلتها، ثمَّ وضعتها على رأسي، لأظهر له الاحترام، وقلت له: «نحنا بأمرك عمي أبو أنور».

جرت الأمور كما كان مخططاً لها تماماً، ولم أصدق أنها جرت بهذه البساطة، عدت بعدها بالطائرة إلى بيروت، أول ما وصلت شقتي اتصلت بابنتي لأطمئن عليها، وأخبرتها بأن الأعمال كانت ممتازة في اليونان، فأجابتني بخبث: «زوج تانت ناديا، قد توفي منذ ثلاثة أيام، فاتصلت بها بالهاتف، وقدمت لها العزاء، فسألتني عنك، أجبتها بأنك في اليونان، ثم سألتني متى ستعود، فأخبرتها من الممكن بعد أسبوعين». فما كان مني إلا أن أجبتها ببرود: «سأتصل بها غداً لتعزيتها» لعلها سمعت من أمها بإحدى المناسبات، بأنني في صغري كنت أحب ناديا، وأنها الآن تمتحنني، لتعرف رغبتي في فكرة العودة إليها، بعد أن توفي زوجها، إن ابنتي تعتبرني أحد ممتلكاتها الشخصية، وتعاملني

على هذا الأساس، وهي لا تقبل بأن يشاركها أحدٌ فيما تملك، فكرت بهذه اللحظة، ماذا سيكون موقفها، لو تعلم بأنني أخطط للزواج من سعاد، لم تعد طفلة، عليها أن تواجه واقع الحياة.

أخذت جوالي من جديد، واتصلت بسعاد، أريد أن أتحدث معها، فقد اشتقت لسماع صوتها، كان الوقت متأخراً بعض الشيء، فالساعة حوالي التاسعة مساءً، ولكني أخبرتها بأنني في طريقي إليها، أخذت أول تكسي صادفته في طريقي، وانطلقت إلى شارع الحمراء، كان الشارع يبدو خالياً، إلا من بعض المارة، والدكاكين شبه مهجورة؛ بسبب الضائقة الاقتصادية التي يعانيها البلد، اشتريت لها جوال آيفون موديل ١١، فهاتفها قديم جداً، ولا يليق بها، واشتريت لعبتين لابنتيها، واتجهت إلى منزلها، لقد شعرت بعد أن غبت حوالي أسبوعين عنها، بأن هذه هي عائلتي الجديدة، التي أريد أن أعيش معها.

الفصل الثامن

وصلت إلى بيت العم أبو أنور في بريتال، وكعادته استقبلني بالعناق، وجلسنا ندردش حول ما آلت إليه أمور لبنان، وبضرورة تشكيل حكومة جديدة لإنقاذه، وتطرق إلى وضع السياسيين الفاسدين، الذين يساعدون عشيرة البوادمة ضد عشيرته، وأن الجمارك نصبت له كميناً المرة الماضية، في أثناء عملية لتهريب الحشيشة إلى طرابلس، بتحريض من عشيرة البوادمة، وأنه على الرغم من موافقة المجلس النيابي على زراعة الحشيشة بشكل قانوني، فإن بعض السياسيين والأحزاب التي تستفيد من السوق السوداء لتهريب الحشيشة، مازالت ترفض تطبيقه.

لاحظ الملل الذي بدا واضحاً على وجهي، فمدَّ يده إلى درج الطاولة الموجودة بمنتصف الغرفة، وأخرج رزمة من الدولارات،

وذكر لي بأنها خمسة عشر ألف دولار، وهي مقابل أتعابي للسفر إلى الإسكندرية، فوجئت بهذا المبلغ، فلقد كنت أتوقع بأن يكون المبلغ أكبر من ذلك بكثير، فارتسمت على وجهي علامة تعجب، التقطها أبو أنور، وكانت محفّزة له ليشرح لي، بأن مهمتي بمصر كانت بسيطة، لكن إن شاء الله في الأسبوع القادم، هناك عملية كبيرة تنتظرنا، وإذا تمت بنجاح، فسيعطيني مبلغاً محرزاً، قبل خروجي من الدار، أخذت يده وقبلتها، إن المبلغ ليس له علاقة بالاحترام.

عدت إلى بيتي، واتصلت بأبو أيمن، فحضر بعد أقل من ساعة إلى شقتي مع آديلي، فاستنتجت بأنها أصبحت لا تفارقه، وفهمت منه خلال حديثنا، بأنه قد تزوجها زواجاً عرفياً، وقلت له: «هناك عملية كبيرة سنقوم بها في الأسبوع القادم، وقد نحصل منها على مبلغ محترم»، وبينما هو يودّعني عند الباب، أخرجت من جيبي ألف دولار، ودسستها في يده، فأخذها على مضض، في هذه المهنة، لا أحد يرضى بحصته، إنها طبيعة ابن آدم، لا يُشبع عينه سوى التراب.

تشعر بمتعة كبيرة، عندما يكون معك مبلغ كبير من المال، وأنت جالس وحدك، تتخيل كيف ستنفقه على عائلتك، اتصلت بابنتي، وأخبرتها بأنني سأرسل لها ألفي دولار، لكي تحتفظ بها للأيام السود، فأحسست من صوتها بأن المبلغ لم يعجبها موضحة: «إن زوجها يفكر بتغيير سيارتهم القديمة، لأنها دائماً في الكراج للتصليح»، حاولت أن أقنعها بأنه من غير المناسب

استبدالها حالياً، فأدخلتني في دوامة، من مناقشات طويلة لا تنتهي، فأنهيت المكالمة بأني سأرسل لها ثلاثة آلاف دولار، وهي كل ما معي في الوقت الحاضر، فلانَ صوتها قليلاً، على الرغم من أنها لم تصدقني، أحياناً أشعر بأن هذه البنت تريد أن ترثني، وأنا مازلت على قيد الحياة، وقبل أن أقفل خط الجوال، سألتني وهي تتظاهر بالبراءة: «هل اتصلت بتانت ناديا»؟ فأجبتها: «إنني كنت مشغولاً جداً خلال اليومين الماضيين، ولم يكن عندي الوقت الكافي لذلك»، فتغيرت نغمة صوتها، فعرفت بأنها أصبحت سعيدة، لسماعها هذا الخبر، أصبح المبلغ الباقي معي، بالكاد قد يكفي لدهان الشقة، وشراء غرفتي نوم.

اجتمعنا من جديد في فيلا العم أبو أنور، وكنا ستة أشخاص، بمن فيهم أبو أيمن، أخبرنا باختصار: «علينا أن نجهز حالنا لنقل ثمانية أطنان من الحشيشة إلى مدينة طرابلس، وأن نكون حذرين، كي لا نقع في كمين دورية الجمارك، كما حدث في المرة السابقة، وإذا وقعنا في المصيدة، فعلينا أن نتصرف كالرجال، لا كما حدث في المرة الماضية، فلما بدأ تبادل إطلاق النار مع عناصر الجمارك، وقتل شخص واحد من جماعتنا، لاذت البقية بالفرار، تاركين سيارة الشحن المحملة بالحشيشة لرجال الجمارك الفاسدين، وعصابة البوادمة الذين كانوا وراء الكمين، في هذه المرة، عندما أسمع بأن الجمارك استولت على شحنة

الحشيشة، فحينها أعرف بأن العناصر الستة المكلفين بحمايتها، قد قتلوا مع السائقين الأربعة، فمن منكم يشعر بأنه ليس أهلاً لهذه المهمة فلينسحب الآن، الجميع يعرفون أن البقاع تمزقه في هذه المرحلة النزاعات، وتحاول بعض العصابات بدعم قسم من السياسيين السيطرة عليه، هناك سخط عام من أهالي البقاع على الطبقة الحاكمة، التي تتآمر مع قوى الأمن، على محاصرتهم وسرقة أرزاقهم».

بعد أن انتهى من محاضرته، وجَّه حديثه إلى أبو أيمن، وسأله فيما إذا كان عنده خبرة في استخدام قاذف آر بي جي، فأجابه أبو أيمن ضاحكاً: «بأنه ولد وفي يده آر بي جي»، كان بودّي لو وجه لي هذا السؤال، لكنت أخبرته بأنني قد أطلقت أكثر من عشرين قذيفة صاروخية، خلال الحرب الأهلية في السبعينيات، فتابع حديثه: «إن قاذفتي آر بي جي سترافقان الشحنة، وسيحمل أبو أيمن واحدة، أما الأخرى فسيحملها أبو غسان، وهو المسؤول عن عملية التهريب، أما الرجال الأربعة، فسيحملون بنادق إم سكستين الأميركية»، وختم حديثه: «بدي رجال.. مو حريم لابسة بنطلونات».

انطلقنا في موكب من أربع سيارات، وكانت الساعة تشير إلى حوالي الواحدة ليلاً، على سطح طريق ترابي ضيق، والليل قد أرخى سدوله، وبرز القمر بدراً من خلف التلة المطلة على ضيعة بريتال، وغمر ضوءه حقول نبتات الحشيشة الخضراء، المزروعة على طول

امتداد الوادي، كانت سيارة اللاندروفر التي فيها أبو غسان تتقدم القافلة، برفقة واحد من رجالنا المسلحين، تليها سيارتا بيك آب ذات دفع رباعي، تحمل كل واحدة منهما حوالي أربعة أطنان من الحشيشة، وكنت أنا مع أبو أيمن جالسين في آخر سيارة بالقافلة، بينما كانت تسير السيارات على الطريق الواقع على بعد ساعة من طرابلس، فوجئنا بوابل من الرصاص، يأتينا من مسلحين تمركزوا أمامنا على بعد حوالي مئة وخمسين متراً على جانبي الطريق، أصابت عشرات الطلقات سيارة اللاندروفر الأمامية.

بعد أن شاهد أفراد السيارة الثانية في الموكب تعرض السيارة الأولى أمامهم، لهذا الهجوم الوحشي، خرج المسلح الموجود في السيارة الثانية، مستسلماً رافعاً يديه بالهواء، فتم إطلاق النار عليه، فسقط على الأرض، بعد توقف الزخة الأولى من الرصاص المنهمر على سياراتنا، وبينما كان المهاجمون يلقمون أسلحتهم، لمبادرتنا بالزخة الثانية، قفز أبو أيمن من السيارة، وبيده سلاح آر بي جي، وتبعته ببطء، انتظر أبو أيمن اللحظة المناسبة، ولمَّا شاهد ومضات الضوء تنطلق من الظلام الدامس من جديد من على جانبي الطريق، أطلق قذيفة آر بي جي باتجاهها، فهي تقع ضمن منطقة فعالية أر بي جي، والتي هي بحوالي المئتي متر.

أحدث الانفجار صدمة أولى، أثرت في نفسية أفراد الكمين، فتوقفوا لبرهة عن إطلاق النار، واستعاد رجالنا شجاعتهم،

وبدؤوا بإطلاق بنادقهم بشكل عشوائي باتجاه منطقة الكمين، كما أطلقت أنا بدوري عدة طلقات باتجاه مصدر النيران، كان الظلام دامساً، لا يقطعه سوى وميض الطلقات النارية، انحنى أبو أيمن، وركض بسرعة باتجاه المنحدر القاسي الذي على يمين الموكب واختفى، فهرولت محاولاً اللحاق به، وعند وصولي إلى طرف المنحدر، ترددت في نزوله، فجثوت على ركبتي متحركاً ببطء، لكن في منتصف المنحدر انزلقت قدمي، وارتطم جانبي الأيسر بسطحه الترابي، فتحاملت على نفسي، لأبقى قريباً منه لتأمين الحماية له، فوضعُ وركي بعد العملية الجراحية، لا يساعدني على مجاراته بالركض.

بعد أن ابتعد أكثر من مئة متر، استدار إلى الشمال، وزحف حوالي عشرة أمتار، فصار على جانب رجال الكمين، فأطلق الصاروخ الثاني باتجاههم، وعندما انفجر بموقعهم، انهاروا تماماً، وتوقفوا من هول المباغتة عن إطلاق النار، ولقّم آر بي جي، وأطلق الصاروخ الثالث، ثمَّ الرابع، لقد أوقعت القنابل الصاروخية خسائر كبيرة بين أفرادهم، وبدؤوا يركضون، وكنت أسمع من مكاني أصوات الجرحى، الذين تركوهم على أرض الكمين، ليتمكنوا من الفرار بسرعة، مبتعدين عن أبو أيمن، وعندما نفدت الصواريخ الأربعة منه، ألقى القاذف على الأرض، وأخذ مني بندقية إم سكستين، واتجه نحو موقعهم، لقد تخيلت نفسي، وأنا أعيش أيام

السبعينيات من جديد، كان همي الأول، عندما وصلت بدوري إلى هناك، أن أتأكد فيما إذا كان المهاجمون يرتدون بدلات عسكرية، أم إنهم مدنيون من عصابات أهل المنطقة، فشعرت براحة كبيرة عندما رأيت جريحاً يئن، وهو بملابسه المدنية، فأطلق عليه أبو أيمن من بندقيتي رصاصة الرحمة.

كانت العتمة تمنعني من تحديد عدد القتلى، وتصورت بأن هناك ثلاث أو أربع جثث ملقاة على الأرض، حاول أبو أيمن بأن يتابع آثار الهاربين، لكن الظلام مازال حالكاً، ومن الصعب تتبع الآثار، بسبب الصخور الصلبة التي تغطي المكان، إن منفذي الهجوم ربما أخطؤوا في حساباتهم، لقد توقعوا أن يحصلوا على ثمانية أطنان من الحشيشة بسهولة، من دون خسائر في الأرواح.

أوشك الفجر على البزوغ، وعلى أبو أيمن أن يتصرف بسرعة قبل أن تشرق شمس الصباح، والوقت يداهمنا، عدت إلى الموكب، ذهبت لأتفقد سيارة اللاندروفر التي في المقدمة، فوجدت أنها قد احترقت تماماً، وأن جميع من فيها قد قتلوا، فأصبح أبو أيمن في هذه اللحظة مسؤولاً عن تأمين حماية القافلة، أما سيارة البيك آب الأولى، فقد أصيبت بعدد لا بأس به من الطلقات، والسائق قد سقط مضرجاً بدمائه على عجلة القيادة، فطلب مني أبو أيمن أن آخذ مكانه، أما البيك آب الثانية فكانت سليمة تماماً، لأنها كانت بعيدة نسبياً عن مكان الاشتباك، نظمت ترتيب

السيارات الثلاث الباقية، واتجهنا بسرعة إلى المكان المحدد، بالقرب من ميناء طرابلس، تحركنا قبل أن يجذب دوي صوت الانفجارات والطلقات النارية، عناصر الجمارك نحونا.

المعركة الدامية التي شهدتها منطقة البقاع بين أفراد العصابتين، من أجل تصفية حسابات قديمة، وسقط فيها عدد من القتلى والجرحى، استفزت القوى الأمنية في منطقة البقاع، وكعادتها احتلت واجهات الصحف المحلية لعدة أيام، بعدها عادت الأمور إلى نصابها، فالحروب بين العصابات في البقاع، تنفجر دائماً بشكل حروب بين العشائر، وتحاول العصابات الطموحة بناء شيء من الدولة، داخل الدولة المنهارة، بتأييد من بعض السياسيين، بالنهاية يتدخل مشايخ العشائر، ليشتروا سكوت المسؤولين، ويرشون كبار الضباط، ليتغاضوا عن هذه الحوادث، ويجد السكان المحليون أنفسهم مضطرين لقبول هذه الإجراءات، على الرغم من أن المجلس النيابي، كان قد أقرَّ القانون الذي يسمح بزراعة الحشيشة.

شكراً لله، كان ذلك إحساسي عندما دخلت شقتي بعد الظهر، عائداً من مدينة طرابلس، كنت أشعر بنشاط كبير وطاقة فائضة، وقدرة كبيرة على التركيز، نتيجةً لتناولي البارحة، عدة حبوب من الكبتاجون في أثناء قيامنا بالمهمة، أصبح مستحيلاً أن يخطر ببالي أن أذهب إلى النوم، أخذت دشاً ساخناً لم يستغرق أكثر من عشر

دقائق، وبعدها خرجت من الحمام، لبست بيجامتي، وأعددت فنجان قهوة نسكافيه، وأخذت حبة مسكنة للآلام، وفتحت التلفزيون، وبدأت أقلب في القنوات الفضائية، لعلي أشاهد خبراً عن الحادثة التي حصلت معنا، على طريق طرابلس، ولما لم أجد شيئاً، اخترت قناة تبث بشكل مباشر التجمعات التي تحصل في ساحة رياض الصلح، منظر المظاهرات لم يتغير، والناس مازالت تملأ الشوارع، شرد بي خيالي إلى آلاف العائلات التي أصبحت تحت خط الفقر، ولم يعد لديها القدرة لأن تضع الطعام لأولادها على مائدتها.

طويت هذه الوساوس التي بدأت تراودني، لتثير الشك في نفسي حول تباين موقفي، بين ما أقوم به الآن، وبين القيم الروحية التي تربيت عليها في صغري، فأخذت هاتفي الجوال، واتصلت بناديا، فعزيتها بوفاة زوجها، كان صوتها فيه نبرة رقيقة هادئة، تنبض بالدفء والحنان، ولا أثر للحزن فيها، كأن المتوفى لم يكن زوجها، ولا يعني لها شيئاً، وقبل أن أغلق الجوال، عاتبتني لأني تأخرت في تعزيتها، سألتني: «شو عم تعمل»؟ فأجبتها: «إني جالس وحدي، أتابع المظاهرات على التلفزيون»، فضحكت: «تعال لعندي بنتفرج عليها سوا».

استوقفت تكسي، وذهبت إلى بيتها، كنت غير مستعجل لهذا اللقاء، وتذكرت أيام المراهقة، في وقتها كنت أؤمن، بأنني لو كنت على فراش الموت، ونادتني ناديا، فسأصحو راكضاً إليها، تمضي

الأيام، ويتغير الإنسان في كل يوم، حتى يصبح بعد فترة شخصاً آخر، ليجد نفسه بالنهاية في موقف، لم يعد يجمعه بالمرأة التي كان يعبدها، كثيراً من القواسم المشتركة، وبهذا تنتهي جميع قصص الحب، مع مرور الأيام.

استقبلتني بابتهاج، وليس على وجهها أي لون من المكياج، فذُهلت من منظرها، إن للمكياج مفعولاً سحرياً، فهو قادر على إخفاء تجاعيد وجهها، ولاسيما عندما تضعه بطريقة احترافية، فيجعلها تبدو أصغر من عمرها بعشر سنوات على الأقل، وتصورت بأنها ليست ناديا التي مازلت أحتفظ بصورتها في ذاكرتي، إنها امرأة عجوز، بدت لي وكأنها في الستينيات من عمرها، وربما لاحظت من عينيَّ، بأن البريق الذي كان يشع منهما بوجودها قد اختفى، لقد تركتني لتتزوج من هذا الرجل الغني الذي يكبرها بعشرين سنة من أجل أمواله، إنها كالمومس تماماً، فهي تنام معه من أجل النقود، والفرق الوحيد بينهما أن المومس العادية تتقاضى أتعابها من الزبون نقداً مباشرة بعد أن يعاشرها، أما هذه المرأة فإن زوجها يدفع لها سلفاً مبلغاً كبيراً من المال، ليتمكن بعدها من أن يجامعها بالطريقة التي تتناسب مع مزاجه.

بالواقع حين تنفر من الشخص، فإنك تستعيد في ذاكرتك في ثانية جميع مساوئه، وتذكرت أيضاً، بأني لما كنت بالمستشفى، لم

تكلف خاطرها ولو بالسؤال عني بالتلفون، جلست معها لبعض الوقت، وعزيتها بوفاة زوجها، ببعض الكلمات التقليدية التي تستعمل بمثل هذه المناسبات، وعندما ودعتها على الباب، أدركت بأن هذه هي المرة الأخيرة التي أشاهدها فيها.

عرفت الآن طريقي بوضوح، إن سعاد هي المرأة التي أحبها، وعليّ الإسراع بالزواج منها، لكيلا أخسرها، وضعت جوالي على وضع الصامت، وانشرح صدري لهذا القرار الذي اتخذته، وعندما وقع رأسي على الوسادة، غطيت في نوم عميق، تراءى لي أني سمعت بعد فترة صوت جرس الباب، فاستيقظت وأنا متوتر، ينتابني خوف شديد، وكأني بانتظار سماع مصيبة؛ نظراً للظروف التي مررنا بها البارحة، نظرت إلى الساعة، إنها الواحدة بعد الظهر، فتحت الباب بتثاقل، لأجد السائق أحمد، الذي كان يقود بنا سيارة اللاندروفر البارحة أنا وأبو أيمن، وقبل أن أستوعب ما يجري أمامي، بادرني بقوله: «صباح الخير أستاذ، لقد انشغل بال المعلم وأبو أيمن عليك، لقد اتصلا معك بالهاتف عدة مرات، ولم تجاوبهما، إنهما ينتظرانك على الغداء في فيلا المعلم».

لو أن أحداً أعطاني مليون دولار، لما شعرت بالسعادة التي اعترتني بعد سماع جملته الأخيرة، ونظرت إلى شاشة جوالي، لأجد عدة مكالمات واردة من سعاد وأبو أيمن، لم أردَّ عليها، فأخذت جوالي واتصلت بأبو أيمن، لأتأكد من قول السائق، إذ

إنني مازلت غير مطمئن تماماً لما يقوله، سمعت صوت أبو أيمن على الطرف الآخر: «وينك يازلمة اشتقنالك... الكل بانتظارك على الغداء في بيت المعلم» فأجبته: «أنا بالطريق».

نظرت من نافذة السيارة وهي تقترب من فيلا المعلم، فغمرتني سعادة عامرة في هذه اللحظة، فبدا لي سهل البقاع جميلاً بشكل لم آلفه من قبل، إنه في أوج حيويته في بداية فصل الربيع، فاستمتعت بمشاهدة سلسلة جبال لبنان الغربية، التي غطت قممها الثلوج، وامتد الوادي أمامي أشبه بلوحة فنية تطفح بالألوان، تزهر فيه آلاف الزهور البرية ممتدةً بين المزروعات التي تغطيه على اتساع البصر، وهناك آلاف من شجيرات الحشيشة، وبساتين الفاكهة ونباتات منوعة، لا أعرف أسماءها، تشكلت في ظلال جميلة، وشاهدت الجداول تتدفق بغزارة، مسرعة في طريقها لتصبَّ في نهر الليطاني، والمروج المزهرة في كل ركن من أركان الوادي.

وصلنا إلى فيلا المعلم، وأثناء نزولي من السيارة، عاودني الألم في ساقي اليسرى من جديد، ولكني لم أعره أي انتباه، إن كل تفكيري منصبٌّ على المبلغ الذي سيعطيني إياه عمي أبو أنور، شاهدت بضعة شباب جالسين أمام البيت يدخنون الأراجيل، فسلمت عليهم، وتابعت طريقي باتجاه الصالون، عندما دخلته شاهدت عمي أبو أنور جالساً في الصدر، وبجانبه أبو أيمن،

فشعرت بلحظتها بأن أبو أيمن قد تحسن وضعه، وربما أخذ محل أبو غسان، الذي قتل في اشتباك البارحة، وكالعادة بعد العناق والسلام، أخرج المعلم ظرفاً، وأعطاني إياه: «هذه أربعون ألف دولار حلالك زلالك» بحكم العادة أخذت يده وقبلتها، لأعبر عن احترامي له، في هذه الدقيقة، لم يعد المبلغ يعنيني، بقدر ما يعنيني تقديري لذاتي، لقد اهتم المعلم بأمري، وأرسل سيارة خاصة لتحضرني إلى المأدبة، التي أقامها في بيته، ولقد ناداني سائقه أستاذ، إني أعاني في الفترة الأخيرة انخفاضاً في تقديري لذاتي، فأنا متقاعد ومتعطل عن العمل، وهذا الاهتمام من المعلم، ساعدني على تطوير مشاعر إيجابية نحو نفسي من جديد، وفوجئت عندما أخرج المعلم من جيبه رزمة من أوراق المئة دولار مبتسماً: «هذه هدية لك»، اعتقدت بأنها أهم من الأربعين ألف دولار، لأنها من ماله الخاص، أعطاني إياها لشعوره بأنني شخص مميز عن بقية الرجال في مجموعتنا.

تناولنا الغداء في فيلا المعلم، ثم طلب من سائقه، أن يعيدني إلى منزلي، بينما بقي أبو أيمن برفقة المعلم، ما أكَّد ظنوني بأنه قد أصبح على صلة وثيقة به؛ نظراً لهذه الشجاعة التي أظهرها في أثناء المهمة، في الطريق، أخذت جوالي واتصلت بسعاد، وسمعت صوتها الصاخب على الطرف الآخر من الجوال: «غليان قلبي عليك... اتصلت عدة مرات، ولم تجاوب على الهاتف»!! ولكي أمتص

غضبها، حاولت أن أستدرج شفقتها، فقلت: «إني كنت أشعر بألم قوي في ساقي... يمكن بسبب الورك الاصطناعي، فأخذت ثلاث حباتٍ مسكنة، وغطيت بالنوم، ووضعت الجوال على الصامت»، فأخبرتني بأنها ستقوم الآن بنفسها، بالاتصال بالمستشفى لتحديد موعد غداً مع الطبيب، الذي قام بإجراء العملية الجراحية لوركي، لم يكن عندي بديل من الموافقة، لقد شعرت بارتياح كبير بعد أن أغلقت الخط، لأنني قمت بالاختيار المناسب.

في أثناء جلوسنا بانتظار تجهيز طاولة الغداء، ذكر المعلم، بأن رجال الأمن أكدوا أن جثث الرجال الأربعة، التي وجدوها على طريق طرابلس، تعود لعشيرة صغيرة من الغجر، تنصب خيامها بالقرب من قرية عنجر، على بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً من هنا، وهم يعيشون على التشليح والنهب، وقد تصوروا بأن بإمكانهم أن يسرقونا، هنا تدخَّل أبو أيمن، واستلم كعادته الحديث: «لكن ما حدث لهم، سيكون درساً لن ينسوه إلى الأبد»، حاولت أن أنبّه المعلم وأبو أيمن بأن يأخذا حذرهما، فالموضوع أكبر من ذلك، وحتماً هناك أولاد للقتلى، وسيفكرون بالانتقام، لكن أبو أيمن، عاد وبسَّط الأمور: «إنهم جبناء، ولن يجرؤوا على ذلك»، فتشنّج الجو، فهززت برأسي، لأنهي هذا النقاش.

الفصل التاسع

وفقاً للموعد مع الطبيب، توجهنا في الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم الثاني إلى المستشفى، وقبل لقائه طلب مني مساعده، بأن أقوم بعمل صورة شعاعية لوركي، بالفعل نزلت مع سعاد إلى الطابق الأول، حيث قسم الأشعة، وقام الاختصاصي بتصوير القسم الأسفل من جانبي الأيسر، وأرسل الصورة فوراً إلى الكومبيوتر الموجود في غرفة معاينة الطبيب الجراح، إننا نعيش في عصر التكنولوجيا، التي وفرها لنا هذا العالم الاستهلاكي، وبالمقابل، فإنه علينا أن ندفع ثمنها، بالشكل الذي يراه مناسباً.

استقبلني الجراح، وبعد أن نظر إلى صورة الأشعة، أخبرني بأن الأمور لا تدعو للقلق، وأنه عليَّ الآن أن أركز على موضوع

العلاج الفيزيائي، والمشي لمسافات طويلة، لتقوية عضلات ساقي، لتخفف الضغط على وركي الاصطناعي.

مرة ثانية، بدأت أخضع للعلاج، بمعدل ثلاث جلسات أسبوعياً، أقوم خلالها بإجراء بعض الحركات الرياضية المعينة، ثم يضع المعالج، مجسات على عضلاتي، تتصل بجهاز كهربائي، يعمل على إرسال نبضات كهربائية إلى العضلات لتقويتها، ويختتم الجلسة بمساج للعضلات، وبناءً على نصيحة المعالج، بدأت باستخدم العكازة مؤقتاً، لتساعدني في تخفيف الضغط على وركي، وكنت بالماضي قد استخدمت عصا المشي، لفترة قصيرة بعد إجرائي العملية الجراحية، وهاأنذا أعود إليها من جديد، مشكلة التكلفة العالية لهذه الجلسات في المستشفى كانت تؤرقني، ولذلك خطر لي أن أتوقف بعد أسبوع من ذهابي إلى المستشفى، وأمارسها بنفسي في البيت، كيفما كان، لكن سعاد استهجنت هذه الفكرة، وأصرت على الاستمرار بالذهاب إلى المستشفى، ولن أنسى جملتها، «مفكر حالك حتروح على القبر، وتاخذ معك المصاري»، هذه التصرفات البسيطة منها، واهتمامها بمشكلاتي، جعلت قلبي يزداد تعلقاً بها، في اتخاذ قرار الزواج عليك أن تطرح التفكير العقلي جانباً.

اللهفة التي أراها في عينيها، عندما تنظر إليَّ، تجعلني أزداد ارتباطاً بها، أصبحت أدرك أنني لم أعد قادراً على أن أتخطى

فكرة أن أعيش بعيداً عنها، وفي أثناء العشاء في منزلها، ولما انتهيت من شرب أكثر من نصف زجاجة النبيذ الموضوعة أمامي على الطاولة، أتتني الشجاعة، وحرك الشيطان لساني، فعرضت عليها أن أتزوجها، وبعدها يمكنها الانتقال مع ابنتيها للإقامة معي في شقتي، لتوفير دفع إيجار شقتها، فلمعت عيناها، وحدَّقت في عينيَّ وضحكت، فانتبهت إلى جمال أسنانها ولون لثتها الوردي، فذكرتني بأسنان نجوم هوليوود البيضاء اللامعة، وأنا بطبيعتي أركز على أجزاء من جسم المرأة، التي تثيرني جنسياً، وليس جسدها بالكامل، فطالما استرعاني جمال قدميها وفيها، ولعل ذلك يعود إلى أن دماغي مبرمج لرؤية جسد المرأة كأجزاء، وتبسمت بدلال: «لماذا تأخرت؟ أنا في كل مرة نجتمع فيها معاً حول الطاولة، أتوقع منك هذا السؤال».

المشكلة الرئيسية، التي أصبحت تشغل بالي الآن كيف سأخبر ابنتي، بأنني قررت الزواج من سعاد، بدأت أتخيّل كيف سيكون موقفها عند سماعها لهذا الخبر، فهي ستجد صعوبة بالقبول في أن تحل سعاد مكان المرحومة أمها، لتشاطرها محبتي وعاطفتي ومدخولي المادي المحدود، ولاسيما إذا عرفت بأنها مطلقة ولديها ابنتان، ترددت كثيراً، قبل أن أتشجع وأطلبها على الجوال، أخبرتها بأني سأحضر غداً بعض الظهر إلى قرية دوما لزيارتها، لإعطائها الهدية التي طلبتها، لاستبدال سيارتها القديمة،

بسيارة جديدة مستعملة، فأخذت تدعو الله أن يطيل في عمري، ويديمني على رأس العائلة، ثم سألتني مستغربة: «لماذا لا تحضر كعادتك في الصباح»؟ فأخبرتها: «إنني مشغول في الصباح»، ولم تكن لدي الرغبة في القول، بأني اخترت بعد الظهر، لعلمي بأن زوجها سيكون موجوداً بالبيت، بعد انتهائه من دوام المدرسة، لأَني أعرف سلفاً، بأنه سيؤيد موقفي، أمام ابنتي.

أنزلتني سيارة الأجرة أمام البناء في الساعة الرابعة ظهراً، واستعنت بعصا المشي حتى وصلت إلى مدخل البيت، ولما فتحت الباب، وشاهدتني وأنا أدخل بيتها متكئاً على العكازة، انفجرت بالبكاء، كان هدفي من استعمال هذه العكازة هو استدرار شفقتها، ليسهل عليَّ إقناعها بموضوع زواجي من سعاد، ولما رأى الصغيران أمهما وهي تشهق بالبكاء، شعرا بالخوف، فأخذا يبكيان بدورهما، وهكذا وجدت نفسي مع زوجها، وكل همنا تهدئة ابنتي وحفيديَّ، بعدها شرحت لهم، بأن استعمالي لعصا المشي، مؤقت لمدة أسبوعين فقط، وجلسنا ندردش عن أحوال البلد التي تزداد سوءاً في كل يوم، وطمأنتها بأن تجارتي بالعملة الإلكترونية تحقق لي أرباحاً معقولة، وأخرجت من جيبي خمسة آلاف دولار، هدية مني للبيت، من أجل استبدال سيارتهم القديمة.

أصروا لكي أبيت الليلة عندهم، وفي أثناء جلوسنا على العشاء، فاتحتهم بأني أفكر بالزواج من سيدة مطلقة وتعمل مدرسة،

فساد على الطاولة للحظات سكوت مطبق، حتى قطعه زوجها: «إن شاء الله مبارك يا عمي... كان لازم تتجوز من زمان، أنت بسنٍّ فيها بحاجة إلى من يطبخلك، ويعتني بصحتك» ولما سكت، رمقته ابنتي بنظرة مملوءة باللوم والعتاب، لتهمس لي بعدها ببطء قاسٍ: «مبارك بابا»، صحيح أن موقفها لم يكن مشجعاً، ولكنني عندما وصلت إلى هذا الحد، شعرت كأنني ألقيت خمسين كيلو غراماً من على كاهلي.

ينتابني طوال الوقت إحساس داخلي، بأن موضوع جثث الغجر الأربعة، لن ينتهي بسلام، ما دفعني إلى الابتعاد عن أجواء أبو أيمن والمعلم، بقدر الإمكان، إضافة إلى انشغالي بحلحلة بعض الأمور العالقة، إن سعاد تتحسس من علاقتي بأبو أيمن، نظراً لمعرفتها بأنه كان يمونني بحبوب الكبتاجون، التي أبيعها في ساحة رياض الصلح، وهي بالوقت نفسه، تشكُّ بموضوع تجارتي بالعملة الإلكترونية، ولا تأخذها على محمل الجد، لقد أخبرتني بأنها طلقت زوجها، لأنه كان يعيش على المظاهر، وهي تؤمن بأن نظام التفاهة الذي نعيشه الآن، هو سبب تدمير لبنان.

مرة اقترحت عليَّ أن أشتري بالنقود الباقية معي سيارة تاكسي، وأعمل عليها سائقاً، لأنها تعتقد أنه مهما ساءت أحوال البلد، فالناس ستظل بحاجة إلى استخدام سيارات الأجرة، عندما انتهت من هذه الجملة، وجدت صعوبة في التحكم بأعصابي،

وتمالكت نفسي لكيلا أصفعها على وجهها، إنها تدفعني لكي أفقد تقديري لذاتي، فبينما بعض الأشخاص والجيران ينادونني بأستاذ، وهي تريد أن تجعل مني سائق تاكسي، أحاول أن أعيش وهم تضخيم الذات، مثل بقية اللبنانيين، فأتظاهر بالثقة المفرطة بقدراتي، بينما أفتقد بالواقع إلى مقوماتها، معتبراً أن الأعمال القتالية الجنونية، التي كنت بطلها في الحرب الأهلية في منتصف السبعينيات، هي الشيء الوحيد الذي ينفخ في داخلي الشعور بالأهمية، والآن تحاول سعاد أن تكشف نظام التفاهة الذي أتمسك به، لتسلبني ذلك الشعور.

اكتملت التحضيرات لحفلة زواجنا في منزل سعاد، كانت حفلة في غاية البساطة، بناءً على إصرار العروس، فهي مازالت تعتقد بأن علينا توفير النقود بأي وسيلة كانت، لشراء سيارة تاكسي جديدة لأعمل سائقاً عليها، في الأيام الصعبة القادمة على لبنان، حضر الحفلة ابنتي وزوجها، كما حضر من طرفها عمتها، إضافة إلى خالها وابنته، أهديتها في الحفلة خاتم سولتير بألماسة صغيرة جداً، كانت قد اختارته بنفسها، وكنت قد باشرت منذ أسبوع، بترميم شقتي وتجهيزها للانتقال إليها، الشيء الوحيد الذي كنت ألاحظه باستمرار، هو أن النقود تتبخر بسرعة لا تصدق من بين يدي، فدفعتني أحوالي المادية للتفكير بالعودة مجدداً، إلى حضن عمي أبو أنور، وما ضاعف من توتري، أني توقفت

عن تدخين سيجارة الحشيشة في البيت، لكي أتجنب المشاكل مع زوجتي سعاد.

اتصلت بأبو أيمن: «أنا آتٍ لأسلّم على المعلم» فأهَّل بي وسهَّل: «سأرسل لك بعد ساعتين السائق أحمد ليحضرك إلى بريتال»، نغمة صوته أكدت شكوكي السابقة، بأنه أصبح الرجل الثاني في ترتيب المجموعة، فعلاً بعد فترة وجيزة وجدت نفسي في صالون بيت المعلم، شاهدني الجميع وأنا أدخل البيت مستعيناً بالعكازة، فعلق أبو أيمن بنكتة ساخرة عن العكازة، لكني تغاضيت عنها، لكيلا أفسد جو الجلسة، وبعد أن قبلت يد عمي أبو أنور كالمعتاد، بارك لي بزواجي، وأخرج من جيبه ربطة رقيقة من الدولارات، ونظر إليَّ: «هذه هدية للعروس»، اللفتات الصغيرة تترك تأثيراً كبيراً في داخل كل واحد منا، بينما الكلمات الساخرة تترك جروحاً يصعب التئامها حتى بمرور الوقت.

تطرق أبو أنور في أثناء الحديث، لرغبته في إرسال شحنة من حبوب الكبتاجون مرة ثانية إلى مصر، مستخدماً الطريقة الأولى نفسها، فأيد أبو أيمن فكرته، لكني نبهته لمخاطرها، فالأخبار والمعلومات تتسرب عادةً من الموزعين والبائعين إلى رجال المباحث، وبمرور الوقت، يكتشف رجال الأمن الطريقة التي تم استخدامها في تهريب الشحنة الأولى، لذلك من الأفضل أن تغير خطتك في هذه المرة، ونصحته ليقوم بشحنها إلى دولة مجاورة،

ومن هناك يعيد تصديرها مباشرة إلى مصر، تشجع أخو المعلم أبو ناصر، والذي كان موجوداً لاقتراحي، ونصح المعلم بأن يعتمد هذه الفكرة، لكن يبدو أن المعلم فضَّل أن يتريث، قبل أن يبتَّ نهائياً بالموضوع.

في قرى البقاع حيث فرص العمل نادرة، ما عدا مهنة زراعة الحشيشة، لذا اعتاد أكثر الشباب الجلوس في الاستراحات المقامة أمام فلل أعيان البلدة، لتمضية الوقت، متشاركين في متعة تدخين الحشيش بالشيشة، خلال هذه الفترة، واظبت على متابعة عمليات إصلاح شقتي، لكن توقفي عن الذهاب إلى ساحة رياض الصلح، خلق لدي كثيراً من الفراغ، ولما كنت أكره الجلوس في البيت، حتى لا أترك انطباعاً لسعاد بأني متعطل عن العمل، وجدت نفسي في نهاية المطاف فرداً من هذا القطيع، الجالس أمام فيلا المعلم، ينتظر تعليماته.

بقيت الأمور تسير في البيت على هذا المنوال، وبدأت أدرك، أنني تسرعت في هذه الزيجة، لقد فقدت حريتي الشخصية بكاملها، وأصبح عليَّ أن أراعي مشاعر ثلاثة أشخاص دفعة واحدة، موجودين معي في هذا البيت، فسعاد مضطرة للبقاء في أغلب الأمسيات بالبيت، من أجل الإشراف على دراسة ابنتيها، ولعدم رغبتها في تبذير النقود على المطاعم والسهرات، إن بقاءنا في البيت في كل مساء، مع بعضنا لفترات طويلة، بدأ يخلق

بيننا حاجزاً من الملل، والحل الوحيد الذي أعرفه لاختراق هذا الحاجز، هو العلاقات الجنسية.

على الرغم من تقدمي بالعمر، فإنني كنت أتعاطى حبوب سنافي باستمرار، لمعالجة الضعف الجنسي الناتج عن تقدمي بالسن، وإن أدائي بشهادة جميع البنات اللواتي أعرفهن كان ممتازاً، أكثر ما كان يزعجني في علاقاتنا الجنسية، محاولة سعاد الدائمة للتهرب منها، ولا أدري هل هو بسبب تقدمها بالعمر، أم إنها كانت تخشى أن تلفت نظر ابنتيها إلى طبيعة هذه العلاقات، وكل ما تخشاه في أثناء الليل أن نصدر أصواتاً في أثناء ممارستنا العلاقة الجنسية، إنها تريد علاقات جنسية باردة، يخيم عليها الصمت، لا هس ولا آهات مثيرة تعبر عن إثارة الروح والجسد، فالآهات هي تنفيس عن الحب والشغف، والصوت يزيد من متعة اللذة وشدتها، إنها تفرض السكوت المطلق، الذي يفسد العلاقة بيننا ويسرق المتعة منا، لكيلا تلفت انتباه ابنتيها إلينا.

لم أحصل على سعاد، لقد كانت منقسمةً بيني وبين ابنتيها، وليس عندها الوقت للاهتمام بتفاصيل حياتنا الزوجية، فكان يزعجني أن أجدها دائماً راغبة في إنهاء الحوار بيننا في أسرع وقت ممكن، لكي تتفرغ لإنهاء المشكلات الكثيرة التي بين يديها، أحياناً أشعر بأني أظلمها، فأنا لا أقدر الأعمال الكثيرة التي تقوم بها في البيت بمفردها، بعد وصولها من دوام مدرستها، عليها أن

تبدأ دواماً جديداً في البيت، أحياناً أعتقد أن ما تقوم به من الأعمال تجاه ابنتيها، هو واجبها ومشكلتها الخاصة، وليس لي علاقة به، إن أسوأ شيء يمكن أن أصل إليه، أن أقارن علاقتي بسعاد مع علاقتها بابنتيها، مع كل هذه المشكلات الصغيرة، فما زلت أكنُّ مودة كبيرة لسعاد، ربما ناجمة من احترامي العميق لها.

سمعت صوت عجلات سيارة اللاندروفر، وهي تخفف من سرعتها لتتوقف أمام مدخل بيت المعلم، كنت قاعداً بالساحة في بداية هذه الليلة الربيعية المقمرة، أتشارك مع الشباب في جلسة تدخين الحشيشة، نزل السائق بسرعة من السيارة، وبمساعدة ضوء القمر المتسلل من وراء التلة المطلة على الوادي، عرفت بأنه أحمد، اقترب مني وأخبرني: «إنهم أطلقوا النار على المعلم، عند مغادرته صالون الحلاقة، ولقد أصيب برصاصة في بطنه، وهو حيٌّ، لكن إصابته بالغة، ولقد تمَّ نقله إلى مستشفى بعلبك الحكومي»، كان هذا الخبر صاعقاً، اندفعت إلى أحمد طالباً منه أن يقلني فوراً إلى المستشفى، لكنه أخبرني بأن أخَ المعلم أبو ناصر قد اتصل معه بالجوال، وعلينا أولاً أن نمرَّ على بيته لأخذه معنا، فهو يريد كذلك الذهاب إلى المستشفى.

لقد بدأ يحل الظلام، ورياح نيسان المنعشة تداعب أشجار الكينا المنتصبة على طرفي الطريق المؤدي إلى مدينة بعلبك، والتي تبعد عنا حوالي نصف ساعة، كان لدينا خوف من السير

في ظلمة الليل في هذا الطريق الموحش، فلقد تجرأ الغجر على إطلاق النار على أبو أنور، ولربما يخططون لإطلاق النار على سيارتنا أيضاً، ترجلنا من السيارة أمام المستشفى، ودخلنا الردهة، فكانت خالية، ما عدا ممرضة وحيدة جالسة على طاولة الاستعلامات المقابلة للمدخل، لقد خرج الزوار المتأخرون من المستشفى، فالساعة التاسعة ليلاً، سألناها عن رقم غرفة المريض أبو أنور، فترددت أولاً في إعطائنا رقم الغرفة، فوقت الزيارات قد انتهى، لكننا وعدناها بأننا لن نمكث بالمستشفى سوى بضع دقائق، لنطمئن على حالته، دخلنا غرفته، وتحت الضوء الخافت المنبعث من سقف الغرفة، لاحظت وجهه الجامد من دون أي تعابير، والأنابيب المتصلة بأنفه وفمه والممتدة من الأجهزة الكهربائية التي بجانب السرير، مكثنا حوالي ربع ساعة، إلى أن جاءت الممرضة وأخبرتنا: «عليكما مغادرة المستشفى، فالوقت متأخر».

أصرَّ أبو ناصر على أن يقوم السائق أولاً، بتوصيلي إلى بيتي في بيروت، قبل أن يتابعا طريقهما إلى قريتهما في البقاع، وجدت أنها لفتة اهتمام كبيرة من أبو ناصر، في أثناء الطريق تحدثنا عن ضرورة الانتقام من الأشخاص الذين حاولوا قتل المعلم، وذكرت له بطرف الحديث، بأن الانتقام لن يؤدي إلا إلى مزيد من الانتقام، فأجابني: «إن شاء اللّه... بعد أن يقوم أبو أنور

بالسلامة، فسنجلس لترتيب الأمور»، أخبرته بأنه من الأفضل أن نبرم الصلح مع الغجر، صحيح أن عشيرتهم صغيرة وضعيفة، لكن من الأفضل أن ندفع فدية الأشخاص الأربعة، الذين قتلوا على طريق طرابلس، ونغلق الموضوع نهائياً، على أن ندخل في هذه المناوشات الصغيرة، التي تضر بسير العمل، فهزَّ أبو ناصر رأسه مؤيداً كلامي: «لكن الموضوع سيبقى بيد المعلم، وكل ما علينا أن ننفذ ما يراه مناسباً»، عندما وصلت مدخل البناء، ودَّعني أبو ناصر، وتواعدنا على أن نلتقي غداً، في مستشفى بعلبك، للاطمئنان على صحة المعلم.

الفصل العاشر

استيقظ المعلم بعد يوم من الصدمة، وأصبحت حالته مستقرة، وخلال أسبوعين استعاد نشاطه تماماً، وغادر المستشفى، طوال تلك الفترة قام أبو أيمن من تلقاء نفسه، بجمع المعلومات عن الشخصين اللذين حاولا اغتيال المعلم للانتقام منهما، حتى من دون الرجوع إلى أبو ناصر، بدأ يتصور نفسه بأنه المسؤول عن إدارة العمليات في غياب المعلم، ناسياً طبيعة التركيبة العشائرية للعصابات في منطقة البقاع، ولحسن حظه، فقد تعرف صاحب صالون الحلاقة، على الشخص الذي كان يقود الدراجة النارية، التي أقلت الشاب الذي أطلق النار، وتبيَّن بأن الاثنين ينتميان إلى عشيرة الغجر، وأن مطلق النار هو ابن أحد القتلى الأربعة، الذين كانت جثثهم ملقاة على جانب طريق طرابلس.

لاحظت زوجتي سعاد كثرة غيابي، وبقائي لساعات متأخرة في كل يوم بعيداًعن البيت، صارحتني بأنها أصبحت متوجسة من علاقتي بأبو أيمن، وتورطي في تجارة الكبتاجون، حاولت إقناعها بأننا نتاجر بالعملة الإلكترونية بشكل قانوني، فرسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة: «هل أنت محسبني مهبولة، لأصدق كل ما تقوله، عليك أن تتوقف عن مرافقة ابن العاهرة، حتى لا يجرك إلى السجن».

هززت رأسي مستعجباً! لحاجتي إلى إنهاء هذه المناقشة، لكيلا تتطور إلى خناقة، أيقظ كلامها في نفسي، الخوف الناجم عن التهديد بخطر دخول السجن، حتى مع غياب التهمة المباشرة، أصابتني هذه المخاوف المجهولة بحالة غريبة من الهلع، وأنا بطبيعتي أتخوف من المجهول، منذ أيام الصغر، وحتى بلوغي هذه السن، تنتابني دائماً نوبات متواصلة من القلق والتوتر، لإحساسي بأن أمراً مروعاً على وشك أن يحدث، في هذه اللحظة قررت التوقف عن التعامل مع جماعة أبو أنور.

توقفت عن الذهاب إلى فيلا المعلم في بريتال، وبدأت أركز على إنهاء أعمال التعديلات في شقتي، بعد أسبوعين أصبحت الشقة جاهزة للانتقال إليها، رفضت سعاد أن تشتري غرفة نوم جديدة لابنتيها، بحجة أن غرفتهما الحالية مازالت صالحة للاستخدام، واكتفينا بشراء غرفة نوم جديدة لنا، على أساس

أننا عروسان جديدان، إنها امرأة عملية، همّها توفير النقود من أجل مستقبلنا، ما جعلها تكبر في عيني يوماً بعد يوم.

المظاهرات بقيت مستمرة للشهر السادس على التوالي في لبنان، ولا يبدو أن هناك أملاً في حل هذه المشكلات الاقتصادية المتراكمة، فأصبح شبح الفقر يخيم على أغلبية اللبنانيين، وهم متروكون لمصير مجهول، من دون أي أمل في الأفق، وكانت المدارس في معظم الأيام مغلقة، بسبب المظاهرات في الشوارع، والتي تزداد عنفاً في كل يوم.

انتقلنا جميعاً إلى البيت الجديد، لقد أصبحت سعاد مرتاحة نفسياً، لأنها تخلصت من دفع إيجار الشقة القديمة، التي كانت تسكنها مع ابنتيها، رداً للجميل، فلقد استسلمت لرغباتي الجنسية الجامحة من دون مقاومة، تعطيني الجنس بالطريقة التي أريدها، مقابل أن أعطيها الأمان، أنفقت مؤخراً كثيراً من النقود، وأنا الآن من دون دخلٍ دائم، يشعرني بالطمأنينة التي أبحث عنها طوال عمري، وأمامي مسؤوليات ضخمة، ما دفعني لأفكر جدياً بشراء سيارة تاكسي للعمل سائقاً عليها.

مضى أسبوعان على الحياة الروتينية مع عائلتي الجديدة، عندما رن جرس الجوال، كان أبو أيمن على الخط: «وينك يا عريس اشتقنالك... يا زلمة، أبو أنور يريدك أن تحضر فوراً إلى

الفيلا، سأرسل لك السائق أحمد، بعد نصف ساعة سيكون عندك»، وأطبق الخط، اعترافاً مني بفضل المعلم، بعد حوالي ساعة كنت جالساً في الصالون، بدأ الحديث كعادته بشكل روتيني حول الأوضاع الاقتصادية والحكومة، حتى انتقل إلى صلب الموضوع مباشرةً أخبرني: «عندي خطة لنقل مليون حبة من الكبتاجون إلى مصر»، واقترح أن يتولى أخوه أبو ناصر إدارة هذه العملية، وأن أكون أنا يده اليمنى، فوافقت على الفور، لقد تصورت أن علاقتي الخاصة مع أبو ناصر، قد تمكنني من الحصول على مبلغ محترم من هذه المهمة.

عدت إلى البيت عند الظهيرة، وزوجتي وابنتاها لم يذهبا إلى مدارسهم في هذا اليوم، بسبب الإضرابات الدموية التي اجتاحت البارحة شوارع بيروت، شاهدتها واقفة بالمطبخ تقلي البطاطا، اقتربت منها، وأخبرتها بأني سأقوم بآخر صفقة لي مع أبو أيمن، ومن بعدها سأتوقف عن هذه التجارة نهائياً، وتجرأت لأول مرة لأخبرها بما كنت أفكر فيه، بأن نبيع هذا البيت الذي نسكنه، ونجمع كل ما لدينا من نقود، ونهاجر إلى اليونان، لقد قرأت في الجريدة أنه بمجرد أن تشتري بيتاً في اليونان، فإنك تحصل على إقامة دائمة، وبعد ثلاث سنوات يمكن تحويلها إلى جنسية يونانية.

اقتنعت زوجتي بالفكرة، لمعرفتها بأنه لا أمل يرجى من البقاء هنا، لكنها بالوقت نفسه، فهي خائفة من أن يتم إلقاء القبض عليّ،

خلال مهمتي الأخيرة، وأنتهي في السجن، فهي ذكية ومدركة بأن شراء التاكسي في هذه الأيام الصعبة، لن يؤمن لنا دخلاً كافياً، إضافة إلى المخاطرة، بقيادة السيارة بالطرقات الدامية في هذه الأيام، في الحياة لا يوجد أمان، إلا عند الله، ونحن كنّا في وضع لا يسمح لنا بالتفكير في الحصول عليه من هذا الاتجاه.

التحضيرات لإرسال حبوب الكبتاجون تسير بكل سرية، لقد تم تصنيع عبوة مربعة من التنك ذات قعر مزدوج، يتم أولاً وضع حبوب الكبتاجون في أسفلها، ثم يتم لحام صفيحة التنك فوقها، فتبدو كقعر حقيقي لهذه العبوة، وبعدها نقوم بتعبئة العبوة بزيت الزيتون، ومن المستحيل على رجال الجمارك اكتشاف هذه الحيلة، إلا إذا قام واشٍ بتسريب هذه المعلومة إليهم، في أثناء ذلك، كان أبو أيمن يتجول بشكل دائم بالقرب من منطقة بلدة عنجر، لمعرفته بأن عشيرة الغجر مخيمة هناك، ولا بدَّ للشاب يوماً من النزول إلى بلدة عنجر، لشراء بعض الحاجات.

بينما كان متربصاً هناك، أسعفه الحظ في تلك اللحظة من عصر ذلك اليوم، شاهده يقود دراجة نارية وخلفه يجلس شاب آخر، فطلب من السائق الذي يقود سيارته بأن يزيد من سرعته ليلحق بهما، وعند الاقتراب منهما من الخلف، اصطدم بهما بقوة، فاختل توازن الدراجة، وفقد قائدها السيطرة عليها، فانحرفت بقوة يساراً، ما أدى إلى اصطدامها بحجر كبير موجود على

طرف أخدود الطريق، فارتفعت قليلاً في الهواء قبل أن ترتد مهشّمة على الأرض.

نزل أبو أيمن من السيارة، ليتفقد أحوال راكبيها، فشاهد سائقها مطروحاً على الأرض، ويبدو أنه قد فارق الحياة، وجهه محطّم، وعينه اليمنى تكسوها الدماء، وأنفه أصبح مسطحاً من قوة الارتطام بالأرض، فأخرج مسدسه وأطلق طلقتين على رأسه، ليشبع غريزته بالانتقام، وليتأكد من موته، أما الولد الذي كان يركب خلف قائد الدراجة، فحاول أن ينهض عندما سمع صوت الرصاصتين، لكنه لم يتمكن، فهو يعاني بعض الكسور، اقترب منه أبو أيمن، وأفرغ فيه الرصاصات الثلاث الباقية في طاحونة مسدسه ماركة سميث آند ويثون، كان مقتل هذين الولدين رسالة إلى عشيرة الغجر، بأن يد أبو أنور قادرة على أن تطول الجميع.

أخيراً، وبعد شهر من العمل الجاد، تمكنت من إيصال البضاعة سالمة إلى مصر، لكن كل مكافأتي على ذلك، لم تتعدَّ ثلاثين ألف دولار، فتأكدت في حينها، بأني لا أحصل مقابل كل هذه التضحيات التي أقوم بها إلا على الفتات، بينما يقوم الزعماء وهم قاعدون في مجالسهم، بالحصول على كل الأرباح، ما زاد من قناعتي بضرورة ترك البلد، والهجرة إلى اليونان، إضافة إلى دوامة الانهيار الاقتصادي المتسارع الذي يشهده لبنان في هذه الأيام، لذا قررت السفر إلى اليونان مع زوجتي؛

لاستكشاف إمكانية حصولنا على الجنسية اليونانية، وبعد صعوبات كبيرة، وافقت ابنتاها على البقاء لمدة أسبوع واحد فقط، في بيت خال سعاد.

نزلنا من الطائرة في مطار أثينا، في مساء يوم دافئ من أيام حزيران، كان الوقت متأخراً، فطلبت من السائق أن يوصلنا إلى الفندق الذي كنت قد حجزت فيه على الإنترنت، ويقع في منطقة بلانكا وسط البلد، بالقرب من شارع أرمو الشهير للتسوق، كنت أريد أن أشتري بعض الملابس، والهدايا الجميلة لسعاد، لتذكيرها بأننا في شهر العسل، ولأعبر عن حبي لها، فهي لم تحصل على هدايا من الأهل والأصدقاء عند زواجنا، بسب الأحوال الاقتصادية الصعبة، التي يعانيها الجميع.

أول ما عملناه بعد أن تناولنا فطور الصباح بالفندق، أن أخذنا تاكسي إلى دكان يبيع الحلويات العربية، لصديق سوري كنت قد تعرفت عليه على الفيسبوك، وبما أن أصدقاء الفيسبوك هم أصدقاء وهميون، فإن أغلبيتهم سيتهربون منك، عندما تطلب مقابلتهم على أرض الواقع، كنت قد أرسلت له رسالة على الماسنجر، وأخبرته بقدومي إلى أثينا، وردَّ عليَّ فوراً، وأعطاني عنوان دكانه، لكني الآن أجد نفسي متردداً قبل زيارته، فلست واثقاً فيما إذا كان سيستقبلني بوجه بشوش، ويساعدني بالحصول على المعلومات التي أريدها من أجل الجنسية، لأننا

أصبحنا في زمان، أصبح فيه أصدقاؤك الحقيقيون الذين تربيت معهم يتخلون عنك، عندما تطلب مساعدتهم.

اندهشت كثيراً عندما دخلت الدكان، لأجد الشخص الجالس وراء صندوق المحاسبة، والذي لم أميزه في بادئ الأمر، يندفع ليحتضني ويقبلني، وكأنه يعرفني منذ خمسين سنة، في لحظتها عرفت أنه صديقي أنور على الفيسبوك، جلسنا لفترة بالدكان، وقدم لنا بعض قطع الحلويات الحلبية الشهية، وأصرَّ على أن نحضر بالمساء إلى بيته للتعرف على عائلته، إنه الكرم الذي مازلت تجده عند بعض العائلات، المنحدرة من أصول قروية في سورية.

في المساء، حضر إلى الفندق الذي نقيم فيه، وأخذنا بسيارته إلى بيته، حيث تعرفنا على عائلته، وقضينا السهرة هناك، شرحت له بأني قد حضرت إلى اليونان من أجل البحث عن طريقة للحصول على الجنسية اليونانية، فما كان منه إلا أن أخذ الهاتف، واتصل بصديق مصري له، يعمل محامياً، وضرب لنا موعداً لنذهب إليه ثلاثتنا في مساء اليوم التالي.

جرت الأمور كما خطط لها صاحبنا السوري، وعندما اجتمعنا مع المحامي، بيّن لي بأن الحصول على الجنسية، ليس بالسهولة التي كنت أتصورها، فيجب عليَّ أولاً شراء عقار لا تقل قيمته عن أربعمئة ألف دولار، وبعدها عليَّ أن أفتح عملاً، يعمل به على

الأقل ثلاثة عمال يونانيون، لكي أحصل على الإقامة الدائمة، ثم هناك بعض الخطوات القانونية، التي عليَّ اتباعها للحصول على الجنسية، إن الحصول على الجنسية اليونانية، لم يعد سهلاً منذ انضمام اليونان إلى اتحاد الدول الأوروبية.

أصبت بصدمة من سماعي لهذا الكلام، لقد تحطمت آخر آمالي، ولاحظت زوجتي الدم يسرع في شرايين رقبتي، لتتغير تعابير وجهي، ويتحول لونه إلى الأحمر، وغشَّت عينيَّ طبقةٌ من الكراهية لهذا المجتمع الأوروبي، قبل مغادرتي مكتب المحامي، سألته عن المبلغ المتوجب عليَّ دفعه مقابل هذه الاستشارة، فضحك وتحدث بلهجة مصرية: «اختشي يا راجل، نحنا أهل».

كانت ليلة قاسية، ولم أعد أرغب في البقاء باليونان، وألغيت فكرة زيارتي لجزيرة سانتوريني المعروفة، لقد اشتركنا في رحلة نظمتها إدارة الفندق الذي أقيم فيه، إلى هيكل المسرح اليوناني القديم، والذي يرمز إلى تفوق الحضارة اليونانية في زمانها على بقية الحضارات، لقد شعرت بأنه تمَّ خداعي، ولم تعد تعني الحضارة اليونانية لي أي شيء، وما كنت قد قرأته في صغري بالمدرسة، وأعجبت به كثيراً، عن مملكة أسبارطة الصغيرة التي هزَّت العالم القديم، وانتصرت على الإمبراطورية الفارسية، ليس له أي معنى، وربما هي كذبة تاريخية، خلقتها الحضارة الإغريقية.

قبل مغادرتي أثينا، دعوت صاحبي السوري مع زوجته، إلى مطعم أوبا اليوناني الشهير، حيث يقوم الجراسين مع زبائن المحل بتأدية بعض الرقصات الشعبية على وقع الموسيقا اليونانية، في أثناء تناول الطعام، وعند انتهاء الرقصة، يقوم الزبائن بتكسير الصحون التي أعدت سلفاً، من إدارة المطعم لهذه المناسبة، كنوع من التعبير عن السعادة وكسر الهموم.

عدت مجدداً إلى بيروت، حاملاً همَّاً يفوق طاقتي، لقد تلاشت الفرصة الوحيدة القادرة على تخليصي من وضعي الحالي، وصرفت فوقها حوالي عشرة آلاف دولار تكلفة الرحلة مع الهدايا، التي أخذت الحصة الأكبر من المصروف، لم يعد أمامي سوى العودة للعمل مع المعلم، عسى أن أتمكن في المستقبل من توفير هذا المبلغ الخيالي، الذي ربما يؤهلني للحصول على الجنسية اليونانية.

بعد يومين من وصولي، اتصل معي أبو ناصر، وكانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، فقفزت من فراشي، لأنني مصاب بفوبيا الخوف من اتصالات منتصف الليل، كان صوته قاسياً، ولقد اختفت النغمة المعسولة من كلامه، وأبلغني: «عليك أن تحضر على الفور إلى الفيلا، لقد أرسلت السائق علي ليحضرك في الحال»، استغربت من لهجة صوته، واستغربت لماذا لم يرسل السائق أحمد، الذي يأتي عادة لاصطحابي إلى فيلا المعلم.

في الطريق إلى بريتال، حاولت أن أفهم من السائق علي، ماذا يجري في الفيلا، ولكنها العادة المتبعة هنا، لا أحد يريد أن يتكلم بأكثر من اللازم، فشعرت بتوترٍ رهيبٍ، أملته عليَّ حاستي السادسة، فأنا أعرف بوجود قدرة حقيقية عندي، قادرة على التعامل مع الأمور غير المحسوسة عند الناس العاديين، أوحت لي بأن الأمور ليست على ما يرام.

دخلت الصالة، وكان بالصدر أبو ناصر جالساً فيها، وفي يده كأس يتجرع منه الويسكي بتأنٍّ، قطرة بعد قطرة، طلب من الرجلين الجالسين بالغرفة مغادرتها، لأن هناك حديثاً خاصاً بيننا، سكب لي كأس ويسكي من الزجاجة الموجودة على الطاولة بجانبه، شعرت بلحظتها بأنه يود أن يبكي، لكنه ضبط نفسه، وسيطر على نغمات صوته، وبحزن أخبرني: «أولاد القحبة جماعة الغجر... قتلوا اليوم.... أبو أنور وأبو أيمن، أما السائق أحمد، فقد أصيب بجروح بليغة، وهو الآن في مستشفى بعلبك في غرفة العناية المشدَّدة، يلفظ أنفاسه الأخيرة».

التفت نحوي، وتابع حديثه: «لا نعرف كيف حدثت الحادثة»، فأخذت رشفة من كأس الويسكي، وبدأت أتخيل كيف حدثت هذه المجزرة، في ظلمة الليل بينما كانت تسير السيارة على الطريق الترابي الضيق في اتجاه بلدة بعلبك، شاهد السائق أحمد، عائقاً في منتصف الطريق، ربما كان حجراً كبيراً، أو بقرة نافقة،

فتوقف ليزيل هذا العائق، ولم يخطر بباله، بأنه وقع في كمين نصبته جماعة الغجر، أو لعله خفف من سرعته ليأخذ أقصى طرف الطريق، ليتمكن من متابعة طريقه إلى البلدة، لم يكن يدرك مخاطرة مواجهة هذا الكمين، كان عليه أن يعود بالسيارة إلى الخلف بأقصى سرعة ممكنة، لأنها الطريقة الوحيدة للنجاة من هذا الكمين، كان عليه ألا يتوقف.

عندما توقفت السيارة، تقدم شخصان كانا يتربصان هذه اللحظة، واحد على يمين السيارة، والآخر على يسارها، أطلق الأول النار من خلال نافذة السيارة الخلفية باتجاه المعلم، من مسافة قريبة باتجاه رأسه مباشرة، فتناثر الدم وقطع من جمجمته على سترته، فأدرك القاتل بأن الرصاصة قاتلة، فحوَّل مسدسه باتجاه أبو أيمن، وأطلق النار عليه أيضاً، في تلك اللحظة كان المهاجم الثاني يطلق النار على السائق أحمد، الذي فتح باب السيارة، ونزل منها راكضاً محاولاً إنقاذ نفسه، فأطلق عليه النار مرة ثانية من مسافة بعيدة نسبياً، وهذا يفسر لماذا أصيب بجروح قاتلة، ولم يمت في اللحظة نفسها، لا شكَّ أن خبير الأدلة الجنائية، سيكون له دور مهم في تحديد الكيفية التي تمَّ فيها اغتيال الأشخاص الثلاثة، على الرغم من معرفتي المسبقة، بأنه من المستحيل معرفة كيف تمت الجريمة بعد وفاة كل ركاب السيارة، في هذه البقعة المفتوحة النائية.

بينما أنا غارق في تصوراتي، قاطعني صوت أبو ناصر، وهو يصب الويسكي في كأسي: «يجب أن ننتقم من الغجر، وإلا فإن شرف قبيلة المراميد سيتمرَّغ بالتراب، وإلا فعلينا أن نحلق شاربينا»، كان يحاول أن يثير مشاعر النخوة في نفسي، لأندفع في طريق الانتقام، وأتولى قيادة العملية ضد مجموعة الغجر، فهززت كتفي كعادتي، ونصحته: «الانتقام لا يؤدي سوى إلى الانتقام، إذا كنت مصرَّاً على الانتقام، فيجب مهاجمة هذه العشيرة الغجرية وذبحها عن آخرها، حتى لا يبقى ولا واحد منهم يفكر بالانتقام».

وقع كلامي عليه كالصاعقة، وفتح عينيه مذعوراً، والتفت إليَّ: «هذه العشيرة بحدود مئة وخمسين شخصاً، ستقوم الدنيا وتقعد، ماذا ستفعل بنا الحكومة»؟! حاولت أن أحافظ على برودة أعصابي، في عدم التورط بوعود لا أستطيع الوفاء بها، منوهاً: «إذاً... انسَ فكرة الانتقام»، فغيَّر من قعدته على الكرسي، ورفع يديه إلى السماء، وبدأ يدعو الله بأن ينتقم منهم، إنها لغة الجسد، التي تستطيع أن تفضح صاحبها، لقد برهنت حركته هذه، على ما كنت أعتقده سابقاً، بأنه ضعيف الشخصية وجبان، بعكس أخيه المرحوم أبو أنور، وخطر لي لو أنني استلمت عملية الانتقام، وتخلصت منه نهائياً، فسوف أصبح المعلم الجديد لهذه العصابة.

تابعت حديثي: «هؤلاء الغجر ليست لديهم جنسية لبنانية، اليوم تجدهم هنا في لبنان، وربما العام القادم في العراق، أو أي

بلد آخر، ولا أحد يهتم بأمرهم، والحكومة والجيش مشغولان بمقاومة المتظاهرين، الذين يحاولون احتلال المجلس النيابي وإسقاط الحكومة، إن الدولة اللبنانية عملياً منهارة، إضافة إلى علاقاتك مع كبار المسؤولين، في محافظة البقاع، والذين سيساعدونك على تغطية ولفلفة الموضوع، وبما أني أعرف بأن مستودع الأسلحة موجود في قبو الفيلا، خلينا ننزل لنشوف كمية السلاح المتوافرة لدينا في حال قررنا القيام بالعملية»، فأجابني ببرود: «الوقت متأخر خليها لبكرا».

شعرت بالزهو وأنا أشرح له خطتي لتصفية الغجر، زهو يعوضني عن إحساسي بأني دونه في مقياس المال والنجاح، وتخيلت في تلك اللحظة، كأني سمعت صوت ابنتي ببحتها المميزة، تتحدث مع إحدى الممرضات الموجودة بالغرفة، ثم سمعت صوتاً خافتاً يذكرني بصوت زوجها: «اتركيه ليرتاح... تعالي واشربي قهوتك قبل ما تبرد في ردهة الانتظار، أحياناً كنت أتخيل أنني أسمع أصواتاً غريبة، وأحاديث الناس من حولي، لتدخل بعض كلماتهم في مشاهد كوابيسي، وتلعب دوراً في تغيير مجراها.

فجأة سمعت انفجاراً هزَّ السرير الذي أرقدُ عليه في المستشفى، فتحت عينيَّ لأجد أنبوباً متصلاً بأنفي وآخر بفمي، وعدداً من الأسلاك يصلني بأجهزة إلكترونية موجودة بجانب السرير، فأدركت بلحظتها أنني في غرفة العناية المركزة، ولعل

هذا الاهتزاز العنيف، قد فصل بعض الأسلاك، أو أثّر في الأجهزة الإلكترونية الموجودة بجانبي، حضرت الممرضة بسرعة تجر عربة تحمل بعض الأدوية والتجهيزات، وأخذت تعيد برمجة بعض المعدات الإلكترونية المتصلة بي، لتتحقق من العلامات والمؤشرات الحيوية التي تظهر على شاشاتها، ولتتيقن بأنها مازالت تعمل بشكل طبيعي بعد هذا الاهتزاز، فتأكدت أنا حينها من هذه الأحداث، بأني فعلاً في غرفة العناية المركزة.

لقد كنت في غيبوبة خفيفة، استمرت لمدة يومين، أصبت خلالها ببعض الاضطرابات العقلية بمفعول التخدير، دخلت فيها بالغيبوبة مباشرة بعد إجراء عمليتي الجراحية، خلالها كنت قادراً على سماع الأحاديث التي تجري من حولي، من دون تمييزها، بسبب التشويش الحاصل بينها، وبين شريط مناظر الصور التي أشاهدها، تجري أمام عيني.

كان هذا الصوت الذي هزَّ المبنى، هو صوت مدفع الدبابة المتمركزة بالقرب من التلة التي يقوم عليها المستشفى، لقد أطلقت قذيفتها باتجاه القصر الجمهوري في بعبدا، الذي يبعد حوالي ثلاثة كيلومترات من هنا، تبعها صوت صدى أسلحة رشاشة ثقيلة، استمرَّ لأكثر من نصف ساعة، ويبدو أن معركةً حاميةً تدور بين قوات الجيش والحرس الجمهوري المكلف بالدفاع عن مبنى رئاسة الجمهورية في بعبدا، تلتها فترة قصيرة خفّت فيها

حدة النيران، ثم توقفت نهائياً، بعد مقاومة شديدة، سقط على أثرها القصر الجمهوري، في الساعة الثانية عشرة ظهراً، أذاع التلفزيون اللبناني الرسمي البلاغ رقم واحد، الذي يعلن فيه للشعب اللبناني، بأن الجيش قرر استلام الحكم مؤقتاً، لإنقاذ البلد من الطبقة السياسية الفاسدة التي تحكم لبنان.

بعد حوالي ربع ساعة، شعرت بأنني عدت من سفرة متعبة، من خلال نفق مظلم طويل، انتهى بمنطقة مضيئة، تشبه إلى حدٍّ كبير غرفة العناية المركزة، لقد تخطيت مسلسل الكوابيس، التي كنت أعيشها، وكانت مسألة تخطي هذه الكوابيس أصعب من تخطي العملية الجراحية، واستعدت وعيي تماماً، حينها سمح الطبيب لعائلتي بالدخول إلى غرفتي، وكان أول ما شاهدته طيف وجه ابنتي وزوجها، كانت ابنتي تحدق في وجهي والدموع تنساب على خديها: «الحمد لله على سلامتك يا بيي... صار لنا يومين عايشين في جهنم»، تأكدت حينها، وبما لا يترك مجالاً للشك، بأني دخلت في الغيبوبة لمدة يومين، في أثناء العملية الجراحية.

بعد بضع دقائق دخلت ناديا، ولما رأتني ممدداً على السرير، انفجرت في البكاء، واقتربت مني، ومررت أناملها برفق على خدي، فشعرت بحبها ينساب في عروقي، لقد مضى عليها يومان، وهي جالسة معهما، لا تفارقهما في ردهة الانتظار.

المؤلف في سطور

محمد أمين الساطي

- تولّد دمشق.
- مهندس مدني.
- عضو اتحاد الكتّاب العرب في سورية.
- عضو اتحاد وكتّاب الإمارات.

صدر له:

- مجموعة قصصية: «أوهام حقيقية».
  الطبعة الأولى - دمشق - ٢٠١٧
  الطبعة الثانية - الإمارات - دار أوستن ماكولي - ٢٠١٨
- رواية: «نبوءة على التلفاز»
  الطبعة الأولى - دمشق - دار العراب - ٢٠١٩
- مجموعة قصصية: «الممسوسة».
  الطبعة الأولى - دمشق - دار توتول - ٢٠٢٠